

مركز الدراسات الشرقية

ORIENTAL STUDIES CENTER



المسلمون والحوار الحضارى مع الآخر
نقد إسلامى لنظرية صراع الحضارات

تأليف

أ.د. محمد خليفة حسن

مدير مركز الدراسات الشرقية

سلسلة الحوار بين الأديان والتقاء الحضارات

العدد (٢) ٢٠٠٣



المسلمون والحوار الحضارى مع الآخر

نقد إسلامى لنظرية صراع الحضارات

تأليف

أ.د. محمد خليفة حسن

مدير مركز الدراسات الشرقية

سلسلة الحوار بين الأديان والتقاء الحضارات

يصدرها مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة

تحت إشراف : أ.د / محمد خليفة حسن

* الآراء الواردة تعبر عن وجهة نظر كتابها ولاتعبر بالضرورة عن رأى المركز

تصدر هذه السلسلة تحت رعاية

أ.د نجيب الهلالى جوهر

رئيس جامعة القاهرة

ورئيس مجلس إدارة المركز

و

أ.د عبد الله التطاوى

نائب رئيس الجامعة

ونائب رئيس مجلس إدارة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يسر مركز الدراسات الشرقية أن يقدم هذا الإصدار الجديد الذى يناقش إحدى أهم القضايا التى تواجه العالم الإسلامى فى الوقت الحالى وهى قضية علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى ، وهى القضية التى أثارتها بقوة نظرية صدام الحضارات التى طورها صموئيل هنتنجتون وتركت أثرها الكبير على العلاقات الدولية وعلى سياسة الغرب تجاه المسلمين وحضارتهم . وقد ازدادت نظرية صدام الحضرات قوة وتأثيراً بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر . وتم تركيز الاتهام على الإسلام وحضارته ونُظِر إلى الإسلام على أنه دين مُهدد للغرب وحضارته .

والبحث الذى نقدمه فى هذا الكتاب يمثل نقداً إسلاميًا لنظرية هنتنجتون الخاصة بصدام الحضارات وتوضيحًا للموقف الإسلامى من الحضارات الأخرى عامة ، ومن الحضارة الإسلامية خاصة والتأكيد على العلاقاتالإيجابية للإسلام وحضارته مع الأديان والحضارات الأخرى ، وبيان أخطاء نظرية صدام الحضارات ، وعدم اتفاقها مع طبيعة الحضارات ، وتوضيح أخطاء هذه النظري

وبخاصة خطأ تسييس الحضارات ، وإفساد العلاقات الحضارية بين العالم الإسلامى والغرب واعتبار هذه النظرية مسئولة عن تدهور العلاقات الإسلامية الغربية وعن تشويه صورة الإسلام وحضارته فى الغرب .

ونرجو أن يحقق هذا النقد لنظرية صدام الحضارات هدفه ونرجو أن يستفيد من العمل كل المشتغلين بقضية العلاقات الحضارية بين الشعوب وبالموقف الإسلامى من حوار الحضارات .

أ.د. محمد حسن خليفة

مدير مركز الدراسات الشرقية

جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دور الدين فى تكوين الشخصية الحضارية

لاشك فى أن الدين يلعب دوراً أساسيًا ومحوريًا فى تكوين الحضارات وفى تكوين الشخصية الحضارية . وباتخاذ التدين كعامل للتقسيم أو التصنيف يمكن القول بأن الحضارات تنقسم إلى نوعين: حضارات دينية ، وحضارات لا دينية أو وفقًا للمفهوم الشائع حضارات علمانية . وتمثل ديانات الشرق الأقصى إشكالية داخل هذا التصنيف وذلك لأنها تمثل نظمًا أخلاقية أكثر من كونها ديانات . ومع ذلك فقد خلقت هذه النظم الأخلاقية حضارات تخصها يمكن أن نسميها حضارات أخلاقية . وهى تسمية تسمح بإدخال النظم الأخلاقية الشرقية (غير الإسلامية) ضمن النظم الدينية مع الاعتراف بأن الأسس الأولى لهذه الأديان أخلاقية كما أن تحولها إلى أديان يأتى بعد تطور تمت فيه ترجمة النظام الأخلاقى إلى ممارسات أى إلى شعائر يمكن أن نسميها تجاوزا بنظام للعبادة .

وعلى كل حال تبقى الظاهرة الأخلاقية كقاعدة مشتركة تجمع ديانات التوحيد وحضاراتها بديانات الشرق الأقصى وحضاراته مع

بقاء الاختلاف حول الأولوية والمرجعية : هل هى للدين على الأخلاق أم للأخلاق على الدين ؟ ففى ديانات التوحيد الأولوية للدين فهو مصدر الأخلاق ، وفى ديانات الشرق الأقصى الأولوية للأخلاق ، ويمكن القول تجاوزاً بأن الأخلاق كانت مصدراً للدين إذا فهمنا الدين فهمًا شعائريًا طقوسيًا عباديًا فى ديانات الشرق الأقصى .

ولكن الدين ، حسب المفهوم التوحيدى ، أوسع من هذا الفهم الشعائرى الطقوسى . فالدين مجموعة من العقائد النظرية التى تتمركز حول التوحيد المحتوى ضمن بنيته على الأخلاقيات ، ولهذا يسمى بالتوحيد الأخلاقى حيث يتصف الإله الواحد بمجموعة من المبادىء والقيم الأخلاقية المطلقة التى يمكن للإنسان أن يحققها، ولكن فى صورة نسبية . فالإله عادل والإنسان يمكن أن يكون عادلاً ، ولكن عدالة الإله عدالة مطلقة بينما عدالة الإنسان عدالة نسبية . وهكذا بالنسبة لكل الصفات بخلاف صفات الذات ، أى الصفات التى تنفرد بها الذات الإلهية ولاتتحقق فى الذات الإنسانية .

لقد اختلفت الأديان فى العقائد ولكنها اتفقت على الأخلاق . وتم تنظيم السلوك الإنسانى فى الحياة على أساس من نظم أخلاقية تنظم علاقة الإنسان بالإنسان داخل المجتمع .. ولايوجد مجتمع إنسانى بدون أخلاقيات منظمة للسلوك الإنسانى ،

والاختلاف الكائن هو حول مصدر الأخلاق . ويمكن القول أنه فى الوقت الحالى لدينا ثلاثة آراء حول هذه المصدرية ، الأول يقول بأن الدين هو مصدر الأخلاق كما هو الحال فى ديانات التوحيد ، والثانى يقول بأن الأخلاق هى المصدر ومنها تتطور الممارسات الدينية كما هو الحال فى معظم أديان الشرق الأقصى فى الهند والصين واليابان ، والثالث يقول بأن الإنسان هو مصدر الأخلاق كما هو الحال فى حضارة الغرب الحالية التى ترد القيم الحضارية الغربية إلى جهود العقل الإنسانى فى تنظيم الحياة الإنسانية الحديثة ، وبلورة قوانين أخلاقية، ووضع دساتير قيمية وأعراف أخلاقية يسير عليها الإنسان الحديث فى الغرب . وبينما تأخذ الأخلاق الدينية صفة الثبات تتصف القوانين الأخلاقية الإنسانية بالتغير ، وهى صفة النظم القيمية الغربية القائمة على أسس إنسانية علمانية . وتأتى النظم الأخلاقية فى ديانات الشرق الأقصى فى مرحلة وسط بين هذين النسقين الدينى والعلمانى ، فهى ثابتة متغيرة إن صح هذا التعبير . فهى تكتسب ثباتها من القداسة التى اكتسبها واضعوها فى تراث الشرق الأقصى ، وهى متغيرة بحكم قابليتها للشرح والتفسير والتعديل أو التطوير على يد شراحها من تلاميذ الواضعين الأوائل لها . كما أنها متغيرة بحكم مصدرها الإنسانى القابل لإعادة التفسير وللتغيير .

وبصرف النظر عن صفة الثبات أو التغيير فى النظم الأخلاقية فإن هذه النظم المستمدة من مصادر دينية أو علمانية هى التى

تشكل فى النهاية الشخصية الحضارية التى تكتسب مواصفات مصدرها بحيث يمكن القول فى النهاية بأن الحضارات بما تحتويه من قيم ومبادىء مادية ومعنوية هى من نتاج النظم الأخلاقية سواء فى ذلك ذات المصدر الدينى الثابت أو المصدر العلمانى المتغير . وقد اكتسبت الحضارات خصائصها من خصائص مصدرها ، وهو أمر سيكون له أيضًا دوره فى تحديد موقف الحضارات من بعضها البعض ، وبالتالى تحديد موقفها من إمكانية الحوار فيما بينها أو عدم إمكانية ذلك . وهل علاقاتها ببعض علاقات تصادمية أم أنها علاقة وفاق ؟ .

يعترف صموئيل هنتنجتون Samuel Huntington بأن الدين من السمات الأساسية المحددة للحضارات ، ويقتبس قول كريستوفر داوسن بأن " الأديان الكبرى هى الأسس التى تعتمد عليها الحضارات الكبرى " (١) . ويقتبس أيضًا رأى ماكس ڤيبر Max Weber القائل بأن من بين أديان العالم الخمسة هناك أربعة مرتبطة بحضارات رئيسية وهى المسيحية والإسلام والهندوسية والكونفوشيوسية . أما الدين الخامس وهو البوذية فهو ليس مرتبطًا بحضارة رئيسية وذلك بسبب تكيف البوذية واستيعابها فى الثقافات المحلية فى البلاد التى انتشرت فيها البوذية مثل الصين وكوريا وفيتنام واليابان . وفى الصين مثلاً تم استيعاب البوذية فى الكونفوشيوسية والتاوية ، وهذه البلاد المذكورة لاتعتبر نفسها جزءاً من الحضارة البوذية رغم كونها مكونًا مهمًا من مكوناتها

الثقافية. والبوذية رغم أنها دين رئيسى لكنها لم تصبح حضارة رئيسية [٢].

وهناك ديانة مهمة لم تنشأ مرتبطة بحضارة وهى الديانة اليهودية التى لم يذكرها صموئيل هانتجتون فى تحليله سوى بشكل هامشى . فعلى هامش تحليله يقول بأن معظم الباحثين فى الحضارات نادراً مايذكرون « الحضارة » اليهودية ، ويبرر هذا بقوله بأنه من ناحية عدد البشر فاليهودية ليست حضارة رئيسية . ويصفها المؤرخ أرنولد توينبى بأنها حضارة معتقلة نشأت مرتبطة بالحضارة السريانية المبكرة ، وهى تاريخيًا ذات صلة بالمسيحية والإسلام ، وعلى مدى قرون حافظ اليهود على هويتهم الثقافية داخل الحضارات الكبرى مثل الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية[٣] .

ونستفيد من رأى هنتنجتون أن الدين من السمات الأساسية المحددة للحضارات ، وأن الأديان الكبرى هى الأسس التى تعتمد عليها الحضارات الكبرى . ونستفيد من هذا أن الحديث عن حوار الحضارات أو صدام الحضارات لايمكن فهمه وتفسيره إلا داخل إطار الدين والأديان . وكما ذكرنا الدين له دور أساسى فى تكوين الحضارات وفى تكوين الشخصية الحضارية . وحتى الحضارات التى تحاول أن تظهر مستقلة عن الأديان وبعيدة عن تأثيرها هى فى حقيقة نشأتها رد فعل تجاه الدين ، والمثل الواضح القوى يظهر فى الحضارة الغربية التى صورت نفسها فى شكل حضارة

علمانية مستقلة عن الدين وتأثيراته . ورغم علمانية الحضارة الغربية فهى مرتبطة بالمسيحية واليهودية بل إنها فى أولى مراحل تطورها كانت مرتبطة بالإسلام الذى استمدت من تراثه العلمى وحضارته أسس النهضة العلمية الأوربية الحديثة بداية من عصر النهضة الأوربية التى قامت على التراث العلمى الإسلامى .

علاقة الحوار بين الحضارات
بالحوار بين الأديان

وهذا يوضح أن الحضارات مرتبطة بالأديان وأن الموقف من الحوار أو الصدام بين الحضارات هو فى حقيقة الأمر مرتبط بالموقف من الدين والأديان . والحوار بين الحضارات ليس فى حقيقة الأمر سوى امتداد للحوار بين الأديان وربما نتيجة من نتائجه .

ولاشك أن هناك ازدواجية فى الموقف الأوربى لانجده فى الموقف الإسلامى . فالغرب فى وقتنا الحالى ومنذ عصر النهضة الأوربية يعيش فى حالة ازدواجية أو ثنائية متناقضة . فالحضارة الغربية العلمانية لاتعترف بالدين ، ولذلك لا يهمها الحوار بين الأديان وتركز على الحوار بين الحضارات كبديل للحوار بين الأديان ، وفى نفس الوقت هناك الكنيسة المسيحية الغربية التى طورت مفهوم الحوار بين الأديان بعيداً عن الموقف الحضارى الغربى العلمانى . وهنا تختلف نقطة البداية فى الموقف الغربى. فالكنيسة تؤيد الحوار بين الأديان وتوظفه لأغراضها الدينية ، والحضارة الغربية ترفض مبدأ الحوار بين الأديان . وتقول بالحوار بين الحضارات ، وهذا القول بالحوار بين الحضارات ليس مطلقًا . فهناك الرأى الغربى القوى الذى يقول بالصدام بين الحضارات ، ونعتقد أنه الرأى الأقوى ، والذى يعبر تعبيراً حقيقيًا عن موقف

الحضارة الغربية من الحضارات الأخرى . فالحضارة الغربية تؤمن إيمانًا قويًا بفكرة أو مفهوم الصراع والتحدى ، وتعتقد أن الحضارة لاتنشأ إلا من خلال الصراع الإنسانى مع الطبيعة فى البداية ، ثم الصراع بين البشر داخل الحضارة الواحدة وكذلك الصراع بين البشر من أهل الحضارات المختلفة .

والمعروف أيضًا أن الحضارة الغربية تأخذ بمبدأ السيادة والهيمنة . ومن الطبيعى أن السيادة والهيمنة لايتمان إلا من خلال الصراع مع الآخرين من أهل الحضارات الأخرى . وخلال قرون الحضارة الغربية منذ عصر النهضة وتاريخ الحضارة الغربية هو تاريخ صراع مع الحضارات الأخرى وقد اعتمدت الحضارة الغربية على مفهوم القوة ، وتمكنت من فرض سيادتها بالقوة على الآخرين خلال المرحلة الاستعمارية ، ولاتزال تحاول فرض هيمنتها بوسائل بديلة للقوة العسكرية خلال المرحلة التى نعيشها الآن.

هناك إذن ازدواجية واضحة فى الموقف الغربى من الحوار بين الحضارات والأديان إذ أن القطاع العلمانى فى الحضارة الغربية بحكم علمانيته فهو لا يقر بالحوار بين الأديان . والقطاع الكنسى يقبل الحوار بين الأديان . والموقف الغربى العام من الحضارات موزع أيضًا بين القول بالصدام بين الحضارات، والقول بإمكانية الحوار بين الحضارات .

ولاشك أن النظرية الغالبة اليوم فى الغرب هى نظرية " صدام الحضارات" . وعلينا أن نتعامل مع الغرب من خلال هذه الحقيقة

المتفقة مع طبيعة الحضارة الغربية القائمة على الصراع والقوة والتحدى ، والمتفقة أيضًا مع تاريخ الحضارة الغربية فى علاقتها بالحضارات الأخرى . فهذا التاريخ تاريخ تصادمى ويشهد بقوة مفهوم الصراع والتحدى . فقد مارست الحضارة الغربية كل أشكال العنصرية ضد الحضارات الأخرى ، وعملت على تحقيق هيمنتها على هذه الحضارات ، إما من خلال الاستعمار وتطبيق سياسة التغريب ، أو من خلال سياسة الإبادة للثقافات الوطنية كما حدث مع الثقافات الوطنية فى أمريكا الشمالية والجنوبية (ثقافة الهنود الحمر) ، ومع الثقافات الشرقية فى الفترة الاستعمارية .

وعلى الرغم من ظهور بعض الأصوات العاقلة فى الغرب المعاصر والتى تنادى بالحوار بين الحضارات فإن الحضارة الغربية لن تؤمن إيمانًا حقيقيًا بالحوار إلا إذا غيرت من طبيعتها القائمة على أساس من القوة والصراع والتحدى ، وهو أمر غير ممكن .

ومن وجهة نظرنا أن الحوار بين الحضارات امتداد للحوار بين الأديان ولذلك لايصلح الحوار مع الحضارة الغربية بسبب استقلالها عن الدين وتنصلها منه . وهذا يجعل حوارها مع الحضارات الأخرى ليست له أصول أو ضوابط ميتاحضارية أى ضوابط أو مبادىء أعلى كأن تكون دينية أو أخلاقية .

ويشهد تاريخ العلاقات بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى بعدم وجود مبادىء للحضارة الغربية بخلاف المبادىء

الذاتية التى طورتها الحضارة الغربية ، وهى مبادىء القوة والهيمنة والإيمان بالصراع والتحدى . وهذه مبادىء تغلق باب الحوار مع الحضارات الأخرى لأنها لاتعترف بالحضارات الأخرى وتعتبرها متدنية عن الحضارة الغربية ، وبالتالى فهى مستحقة لأن تصبح خاضعة للحضارة الغربية وموضوعًا للهيمنة . فالوفاق ليس موجوداً والتعايش ليس أصيلاً لأن التعايش الحضارى يقوم على أساس من الاعتراف بالآخر والاستعداد للتفاعل معه ، وتبادل الأخذ والعطاء بعيداً عن سياسة الهيمنة. ومسيرة الحضارة الغربية منذ بدايتها إلى الآن تقول بعكس هذا تمامًا .

إن الحوار بين الحضارات لابد وأن تتوفر له قاعدة دينية أو أخلاقية أو دينية أخلاقية معًا . ومثل هذه القاعدة ليست متوفرة فى الحضارة الغربية من حيث المبدأ حيث يصر الغرب على استقلالية الحضارة الغربية عن الدين والأخلاق . فهى منذ عصر النهضة الأوربية انفصلت عن الدين من ناحية، وابتعدت عن الأخلاق ذات المصدر غير الإنسانى أو المرتبطة بفكر دينى . ومن خلال هذه الاستقلالية عن القاعدة الدينية والأخلاقية طورت لنفسها قيمًا يمكن أن نسميها قيمًا علمية أو علمانية أو دنيوية ليست لها مصادر خارج ذاتها . وقد اتخذت هذه القيم الغربية صفة الصراع ، فهى قيم دافعة إلى التحدى والصراع، وتوظيف القوة لخدمة أهلها وعلى حساب غيرها من الحضارات والثقافات . بل هى قيم تؤمن

بالتميز والأفضلية وعلى أسس عرقية فى المقام الأول تم من خلالها تحديد موقف الحضارة الغربية من الحضارات الأخرى ، فوصفت نفسها بصفات التفوق والتميز والتقدم والقوة والهيمنة وحددت للحضارات الأخرى مكانها المتدنى من الحضارة الغربية ، فهى من خلال هذا المفهوم حضارات متدنية متخلفة يجب غزوها وإخضاعها وبخاصة أن لديها قابلية للخضوع والاستعمار ، وتكونت فلسفة غربية استعمارية داخل الحضارة الغربية تقوم على فلسفة القوة والتحدى والصراع ، والاعتقاد فى الأفضلية العرقية والتميز والتفوق ، وبالتالى حق السيطرة والهيمنة على الحضارات الأخرى .

ونعتقد أن السبب الرئيسى فى تطور مفهوم صراع الحضارات فى الغرب هو هذا الاعتقاد فى أفضلية الحضارة الغربية وتقدمها ودونية الحضارات الأخرى وتخلفها ، وتطور مايسمى بعبء الرجل الأبيض ، وهو عبء حضارى ألقى على الحضارة الغربية مسئولية نشر التحضر والمدنية فى العالم ، وفرض الأسلوب الحضارى الغربى لأنه الأحسن والأفضل والأنسب لكل الشعوب . وبهذا الشكل وضعت الحضارة الغربية نفسها فى موضع الصدام مع الحضارات الأخرى ، واتصف تاريخ علاقتها بالحضارات الأخرى بصفة الصراع من أجل تحقيق بقاء الأصلح ، وكانت هذه هى الفلسفة الاستعمارية للحضارة الغربية خلال القرون الأخيرة .

إن غياب القاعدة الدينية والأخلاقية فى الحضارة الغربية هو الذى دفع بها دفعًا إلى التصادم مع الحضارات الأخرى . كما أن اختلاف طبيعة الحضارة الغربية عن معظم الحضارات الأخرى هو الذى أدى إلى حدوث التصادم والإيمان بالصراع ، والاتجاه نحو الهيمنة وفرض السيادة والأخذ بمفهوم العبء الحضارى ، والاعتقاد فى قابلية الحضارات الأخرى للانصياع والخضوع للحضارة الغربية .

وفى مقابل غياب القاعدة الدينية والأخلاقية فى الحضارة الغربية اتخذت الحضارات الأخرى لنفسها قاعدة دينية أو أخلاقية أو دينية أخلاقية معًا أدت بها إلى تحديد موقف من الآخر يتناسب مع هذه القاعدة الدينية الأخلاقية وهذا الموقف من الآخر يجعل الحوار معه قائمًا على أسس ومبادىء مستمدة من الدين أو الأخلاق أو الاثنين معًا . ويمكن بشكل عام أن نقول بأن حضارات الشرق الأقصى اتخذت من القاعدة الأخلاقية أساسًا للحياة وللتعامل مع الآخر ، أما ديانات التوحيد فلها قصة غريبة وهى أنها ، فيما عدا الإسلام ، ليس لها تأثير على تحديد العلاقة بالآخر والعلاقة بالحضارات الأخرى لسبب بسيط جداً وهو أن الحضارة الغربية ابتلعت اليهودية والمسيحية فى بطنها ، وقضت على القيم الدينية والأخلاقية النابعة من هاتين الديانتين ، وفرضت على الغرب حياة لا علاقة لها بالدين والأخلاق، وطورت للإنسان

الغربى بديلاً عن القيم الدينية والأخلاقية اليهودية والمسيحية ، وهو مجموعة القيم الحضارية العلمانية التى تقدس المادة والعقل والعلم ، وتجعلهم جميعًا مصادرها للأخلاق والقيم النسبية المتغيرة من ناحية وذات الطابع الأنانى النفعى من ناحية أخرى . وهى قيم منغلقة على ذاتها وهدفها إسعاد إنسانها وتحقيق الشقاء لغير إنسانها . ولذلك تطور موقف حضارى غربى من الآخر يقوم على المادية والنفعية ، ويعمل على تحقيق الهيمنة والرغبة فى فرض هذه القيم على الآخرين ، وإخضاعهم للأسلوب الحضارى الغربى .

وقد فقد الغرب قيم اليهودية والمسيحية ولا يمكن القول بأن الحضارة الغربية استوعبت هذه القيم وهضمتها ، بل على العكس لقد عملت على التخلص منها ، وفى عنفوانها أجبرت الحضارة الغربية الديانتين اليهودية والمسيحية على التغير من خلال تبرير الفلسفة الحضارية الغربية وتغيير المواقف الدينية لصالح الغرب وحضارته ، وأيضًا من خلال علمنة اليهودية والمسيحية ، وليس للديانتين أية سلطة تأثيرية على الحضارة الغربية . ولا ننسى أن صراع الحضارة الغربية بدأ صراعًا داخليًا بين القيم الدينية والأخلاقية لليهودية والمسيحية والقيم الناشئة للحضارة الغربية بعد استقلالها عن المصدر الدينى والأخلاقى وهو المصدر اليهودى المسيحى ومن الصعب أن نقول الآن بأنه يوجد حضارة يهودية أو حضارة مسيحية فى الغرب لأن الحضارة السائدة والمهيمنة هى

الحضارة الغربية العلمانية اللادينية . وعلينا أن نخرج على حدود الغرب إذا أردنا أن نبحث عن ثقافة يهودية أو ثقافة مسيحية .

ولايزال الصراع موجوداً فى الغرب رغم الانتصار الساحق للعلمانية، فلا تزال الدوائر الدينية اليهودية والمسيحية بمذاهبها المختلفة تصارع من أجل البقاء داخل أرضها .

ولم تقف الحضارة الغربية عند حدود الصراع الداخلى مع الدين ، ولكنها نقلت هذا الصراع إلى خارج الغرب ، وآمنت بضرورة الصراع وحتميته مع الحضارات الأخرى ، وهو صراع أزلى البقاء فيه للأصلح . ونظراً لأن الحضارات الأخرى فى معظمها حضارات ذات أصول دينية وأخلاقية فالحرب المعلنة هى حرب على الأديان والنظم الأخلاقية قبل أن تكون حربًا على الحضارات ذاتها ، لأن الاعتقاد سائد فى أن القضاء على الأصول الدينية والأخلاقية يمهد الطريق للهيمنة على الحضارات الأخرى والانتصار فى الصراع ضدها . ولابد من عزل هذه الحضارات عن أصولها الدينية والأخلاقية ثم الانقضاض عليها وإخضاعها فى حالة عدم التمكن من إبادتها .

ويعطى تاريخ الحضارة الغربية منذ عصر النهضة الدليل القاطع على سيطرة مفهوم الصراع داخليًا وخارجيًا . داخليًا من أجل إتمام عزل الحضارة الغربية عن أصولها الدينية والأخلاقية والتخلص من البؤر الثقافية الغربية داخل الحضارة الغربية ، والقضاء على

التنوع الثقافى ، وتحقيق الوحدة الحضارية الغربية بالقوة ، ثم الانتقال بمفهوم الصراع إلى الخارج لفرض النمط الحضارى الغربى على الشعوب غير الغربية إما بالقضاء على الأساليب الحضارية الوطنية أو الإقليمية وإبادتها ، أو بتشويهها أو بتغريبها وكل هذا لايتم إلا من خلال الإيمان بالصراع وحتميته والقول بصدام الحضارات لا بالتقائها .

رؤية هنتنجتون للصراع
بين المسيحية والإسلام

يعتقد صموئيل هنتنجتون خطأ بأن هناك صراعًا مستمراً بين الإسلام والمسيحية وبين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية . ويعتبر الصراع بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية صراعًا سطحيًا إذا ما قورن بصراع الإسلام والمسيحية . وقد استعرض هنتنجتون التاريخ لكى يثبت أصالة هذا الصراع من ناحية واستمراريته من ناحية أخرى . وأهم المحطات التاريخية التى يقف عندها ظهور الإسلام فى القرن السابع وصراعه مع المسيحية من خلال الفتوحات الإسلامية ومروراً بالحملات الصليبية على العالم الإسلامى فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، ثم الفتوحات العثمانية فى البلقان وأجزاء من أوربا والاستيلاء على القسطنطينية وتهديد فيينا ، وأخيراً الاستعمار الأوربى الحديث لأجزاء كبيرة من العالم الإسلامى . ويستشهد هنتنجتون بالمستشرق برنارد لويس فى التأكيد على هذا الصراع وعلى التهديد الإسلامى حيث يقول لويس : " لمدة مايقرب من ألف سنة ... كانت أوربا تحت تهديد مستمر من الإسلام " ، ويعلق هنتنجتون بقوله : " الإسلام هو الحضارة الوحيدة التى جعلت بقاء الغرب موضع شك وقد فعل ذلك مرتين على الأقل " ويقصد

بهما الفتوحات الإسلامية الأولى والفتوحات العثمانية ويقول أيضًا : " الطبيعة العنيفة لهذه العلاقات المتغيرة تعكسها حقيقية أن ٥٠٪ من الحروب التى تضمنت ثنائيات من دول ذات أديان مختلفة بين عامى ١٨٢٠ و ١٩٢٩م كانت حروبًا بين مسلمين ومسيحيين (٤) . ثم يعلل أسباب هذا الصراع بقوله إن أسباب هذا النمط من الصراع ... تتدفق من طبيعة الديانتين والحضارتين المؤسستين عليهما . الصراع من ناحية كانت نتيجة الاختلاف خاصة مفهوم المسلمين للإسلام كأسلوب حياة متجاوز ويربط بين الدين والسياسة ضد المفهوم المسيحى الغربى الذى يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر . كما كان الصراع نابعًا من أوجه التشابه بينهما . كلاهما دين توحيد ... وكلاهما ينظر إلى العالم نظرة ثنائية « نحن » « وهم » ... كلاهما يدعى أنه العقيدة الصحيحة الوحيدة ... كلاهما دين تبشيرى.."(٥).

وتنطوى هذه الرؤية التى قدمها هنتنجتون عن تاريخ الصراع بين المسيحيين والمسلمين أو بين الإسلام والغرب على عدة أخطاء مقصودة فقد استخدمت الحقائق التاريخية فى غير موضعها لكى تبرهن على الصراع وحتميته فى تاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية . والخطأ الأول يبدو فى وصف العلاقة بين الإسلام والمسيحية بأنها علاقة صراع دائم وحتمى . ويبدو الخطأ هنا فى استخدام إسمى المسيحية والإسلام للإشارة إلى دينية الصراع أو أن الصراع دينى فى أساسه ، والحقيقة أن المسيحية والإسلام

لايقومان على أساس من الصراع فالمسيحية دين المحبة والتسامح، والإسلام دين السلام والتسامح . ولايمكن أن توصف علاقتهما معًا بأنها علاقة صراع لأن هذا ضد طبيعة الدينين . فالمسيحية تبنت فكرة المحبة والتسامح إلى حد الاستسلام كما يتضح من القول المسيحى المأثور « إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدُك الأيسر » ، وهو نموذج للتسامح والحب ليس له مثيل . وضرب المسيح عليه السلام فى سيرته المثل الرائع لهذا المفهوم الخاص بالحب والتسامح فى مواجهة الرومان واليهود الذين مارسوا العنف والقوة فى أقصى صورهما .

والإسلام أيضًا نادى بنفس مفاهيم التسامح والحب والأخوة بين البشرية وضرب الرسول ﷺ المثال الأول على هذا من خلال حياته وسيرته . وقد رفعت الديانتان مفهوم المحبة والسلام إلى الذروة حين وصف الله فى المسيحية بأنه المحبة فى العبارة المسيحية التقليدية « الله محبة » وحين وصف الله فى الإسلام بأنه «السلام» فالسلام صفة حسنى وإسم من أسماء الله فى الإسلام .

الديانتان إذن بعيدتان كل البعد عن صفة الصراع التى قال بها هنتنجتون . أما الصراع الذى نشأ فى التاريخ والذى يضرب به هنتنجتون المثل فهو فى الحقيقة ليس صراعًا دينيًا ولايقوم على أسس دينية إنما هو صراع نشأ لأسباب سياسية حيث ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية ثم انتشر فى بلاد كانت تابعة للمسيحيين

مما أدى إلى تطور الصراع بين المسلمين والمسيحيين وهو أمر طبيعي واجهته المسيحية ذاتها عندما بدأت تنتشر داخل فلسطين وخارجها حيث حوربت من القوى الوثنية واليهودية ومن الدولة الرومانية التى لم يكن يهمها أمر انتشار المسيحية كدين لولا الخوف من انعكاس سلبى لانتشار المسيحية على مستقبل الإمبراطورية الرومانية . ولم يزل هذا الخطر إلا بتبنى الدولة الرومانية للمسيحية واتخاذها ديانة للإمبراطورية .

من الخطأ إذن رد الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، أو بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ، إلى الدين أى إلى الإسلام والمسيحية . فالديانات عمومًا ، والإسلام والمسيحية على وجه الخصوص، ترفض فكرة الصراع بل إنها تحارب الفكرة لأن الدين عمومًا يقوم على أساس من المحبة والتسامح والسلام . والمبادىء التى يقرها الدين مبادىء تنظم علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة البشر ببعضهم البعض على أساس من المبادىء الدينية والأخلاقية التى تحض على الأخوة والمساواة والعدالة والمحبة والتسامح والسلام . وهنا يظهر خطأ صموئيل هنتنجتون فى رد الصراع إلى الديانتين المسيحية والإسلامية حين يقول : " إن أسباب هذا النمط من الصراع تتدفق من طبيعة الديانتين والحضارتين المؤسستين عليهما" (ص٢٤٠) .

ويقع صموئيل هنتنجتون فى خطأ ثان حين يرد الصراع إلى اختلاف أسلوب الحياة بين أسلوب إسلامى يربط الدين والسياسة ، وأسلوب مسيحى غربى يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر (ص ٣٤٠) . والخطأ فى هذا هو أن المسيحية مثل الإسلام لهما أسلوب واحد لايفرق بين الدين والدنيا وبالتالى يربط السياسة بالدين . وإذا كان الغرب قد دخل منذ عصر النهضة الأوربية فى مرحلته العلمانية التى تم فيها الفصل بين الدين والدولة فإن المسيحية ذاتها لم تتغير فى نظرتها إلى الدين والدنيا ولكن الذى تغير هو أن الدين (أى المسيحية) قد انحسر فى الغرب وتم تحديد وظيفته فى كونه أمراً شخصيًا يخص الإنسان ولايخص المجتمع . ومع سيطرة الاتجاه العلمانى تم عزل المسيحية واليهودية داخل دائرة التدين الشخصى ، ولم يعد لهما دور فى الحياة العامة ، ولم يعد لهما دور فى السياسة وذلك منذ عزل أو فصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية . ونؤكد أن هذا لم يكن تغييراً فى طبيعة المسيحية ولكنه كان تغيراً فى أسلوب الحياة الغربية بإبعاد الدين عن الحياة السياسية واعتباره أمراً شخصيًا . ويشهد تاريخ المسيحية قبل عصر النهضة الأوربية باجتماع مملكة الرب مع مملكة قيصر ، فالسلطة البابوية جمعت بين الاثنين قبل تطور صراعها مع الإمبراطورية والذى انتهى إلى عزل السلطتين .

وعلى كل حال لايوجد خلاف كبير فى الوقت الحالى بين حياة المسلم وحياة المسيحى ولكن الخلاف الموجود هو بين حياة المسلم وحياة الإنسان الغربى ولايمكن أن نصف الإنسان الغربى الآن بأنه مسيحى من حيث أسلوب الحياة ولكنه فى معظم الأحوال إنسان علمانى غلب عليه الإلحاد وعدم الاعتراف بالدين ودوره فى الحياة الإنسانية وأنكر الاعتقاد فى الألوهية . ومن الصعب جداً أن نقارنه بالمسلم فالمسلم لايقارن إلا بالمسيحى المؤمن وهنا لانجد فارقًا فى النظرة إلى الدين والدنيا .

ويخطىء هنتنجتون مرة ثالثة حين يرد الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى التاريخ إلى أوجه التشابه بين الديانتين الإسلامية والمسيحية . وهذا الرأى يخلو تمامًا من المنطق والعقل . فمن المفترض منطقيًا أن وجوه التشابه بين الإسلام والمسيحية تقرب بين الديانتين وأهلهما ولاتبعدهما ، ولا تؤدى إلى تطور الصراع بينهما . بل إننا على العكس تمامًا نجد أن المهتمين بالحوار بين الأديان يعتمدون اعتماداً أساسيًا على وجوه التشابه بين الأديان لكى يتخذونها وسيلة للتقريب بين الأديان . ويكفى فى هذه الحالة أن نشير إلى أن إعلان الفاتيكان الخاص بالحوار الإسلامى المسيحى أكد تأكيداً شديداً على وجوه التشابه بين المسيحية والإسلام وكيف أنها تفيد فى تحقيق التقارب وهجر الصراع بين الديانتين .

ويتمادى صموئيل هنتنجتون فى تحليله الخاطىء لأسباب الصراع بين المسلمين والمسيحيين حين يرد الصراع إلى التشابه فى عقيدة التوحيد ، والتشابه فى النظرة الثنائية إلى العالم بتقسيم العالم إلى «نحن» و « هم » ، وفى الادعاء بتملك العقيدة الصحيحة وأيضًا برد الصراع إلى أن الدينين دينان تبشيريان .

وتبدو عدم المنطقية فى فكر هنتنجتون حين يعتبر التشابه فى التوحيد سببًا للصراع بين المسلمين والمسيحيين . إن الاشتراك فى التوحيد كان أحد الأسباب الرئيسية فى التقارب بين الإسلام والمسيحية وبين المسلمين والمسيحيين وهى عقيدة قرّبت بينهم ومعهم اليهود فى حين ابتعدت هذه الديانات الثلاث عن ديانات الشرق الأقصى وعن الديانات البدائية الوثنية بسبب غياب عقيدة التوحيد فى هذه الديانات الأخيرة ، وغياب عقيدة الألوهية فى بعضها ، والاعتقاد فى التعدد فى بعضها الآخر .

ونؤكد هنا أن الإسلام حدَّد علاقته بالأديان الأخرى على أساس من عقيدة التوحيد . وقُسمت الأديان إلى أديان توحيد وأديان تعدد وشرك ووثنية . وربط الإسلام نفسه بأديان التوحيد واعتبر نفسه آخرها ومكملها . وفرق بين أهل التوحيد وغيرهم وميز اليهودية والمسيحية بأنها ديانات كتب مثلها مثل الإسلام ، وميز أهل اليهودية والمسيحية بأنهم أهل كتاب وأهل ذمة مع المسلمين ، وأيضًا تعامل مع اليهودية والمسيحية على أنها ديانات توحيد

ووحى ، وبالتالى لايجب فرض الإسلام على أهلهما فرضًا ، بل يجب منح اليهود والمسيحيين حرية الاعتقاد وحقق لهم الحماية الكافية لممارسة دينهم بدون تدخل من المسلمين ، وجعل هذه الحماية حماية تشريعية لاتخضع لأهواء المسلمين من حكام وغيرهم .

وعلى الرغم من امتلاك الإسلام لمفهوم للتوحيد مختلف فى بعض جزيئاته عن المفهوم المسيحى واليهودى للتوحيد فإن الإسلام اعتبر التوحيد القاعدة الأساسية التى توحد المسلم مع المسيحى وأيضًا مع اليهودى وتقرب كل منهما للآخر . وفى هذا يقول القرآن الكريم : { قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء } .

كما أكد القرآن الكريم على أن رسالة التوحيد كانت رسالة كل الأنبياء السابقين على الإسلام فى التاريخ وعدد كبير منهم كان من أنبياء بنى إسرائيل ، وآخرهم عيسى عليه السلام . وأكد القرآن الكريم علي عدم التفرقة بين الأنبياء عليهم السلام لأن دعوتهم واحدة وهم سلسلة متصلة قاعدتها التوحيد . وطالب الإسلام المسلم الإيمان بالأنبياء السابقين وبكتبهم ، واعتبار إيمان المسلم ناقصًا فى حالة عدم الوفاء بهذا الشرط . يقول القرآن الكريم : {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لانفرق بين أحد من رسله } وهكذا تؤكد الآيات أن التشابه ليس سبيلاً إلى الصراع كما اعتقد هنتنجتون ،

ولكن الاتفاق فى المعتقد هو أهم قواعد الالتقاء والوفاق وبالتالى الحوار.

ويؤكد هنتنجتون على التمسك بالخطأ فى تحليل أسباب الصراع حين يقول أن المسيحية والإسلام يملكان نظرة ثنائية إلى العالم فيقسمان العالم إلى " نحن " و " هم " . وهذا الرأى باطل من أساسه فلا المسيحية ولا الإسلام يملكان هده النظرة إلى العالم. لقد أعلنت الديانتان انهما ديانتان عالميتان لايخصان شعبًا من الشعوب ، أو أمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات . بل على العكس لقد أعلن كل منهما أنه دين العالم كله . وداخل هذا الإطار من العالمية لايمكن أن تنشأ نظرة ثنائية أو مزدوجة إلى العالم ينتج عنها تقسيم البشر أو العالم إلى " نحن " و " هم " ولو كان الأمر كذلك لما أصبحت الديانتان المسيحية والإسلامية ديانتين عالميتين تبشيريتين بمعنى أن كلاهما يبشر بنفسه إلى العالم بهدف إدخال العالم كله فى المسيحية أو فى الإسلام وبهذا لايصبح هناك " نحن " و " هم " إنما الهدف هو بشرية واحدة غير منقسمة على نفسها .

ويعطى القرآن الكريم تأكيداً على وحدة الإنسانية بعودتها إلى أصل واحد وبتلقيها دعوة إلهية واحدة ، وبالتأكيد على الأخوة البشرية وبالتأكيد أيضًا على أن الإله واحد لكل العالم ، وأن الدين واحد وهو التوحيد . بل يؤكد على أن الاختلاف الإنسانى بين ذكر

وأنثى والتوزع إلى جماعات وقبائل إنما هدفه التقارب وليس التباعد { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم } فالتعارف والتقارب هو الأساس . والفوارق التى أتى بها التاريخ لا قيمة لها ولاتفرقة بين الناس إلا على أساس من الإيمان والتقوى .

ويرد هنتنجتون الصراع بين المسلمين والمسيحيين إلى أن الدينين تبشيريان . وهو سبب ضعيف فهداية الوثنيين إلى المسيحية والإسلام لايمكن أن يكون سببًا لصراع بين الدينين التوحيديين . نعم قد يكون هناك تنافس على كسب الوثنيين إلى المسيحية أو الإسلام ، ولكنه تنافس فى مصلحة التوحيد فى النهاية . ولاشك أن النجاح فى تحويل الوثنى إلى المسيحية أو إلى الإسلام هو نجاح لعقيدة التوحيد ونجاح للإنسانية من خلال العمل المسيحى الإسلامى المشترك على تحرير الوثنى من العبودية للطبيعة وتوجيهه إلى عبادة الإله الواحد . ولاشك أنه من المفضل عند المسيحى والمسلم أن يترك الوثنى الوثنية ويصبح مسيحيًا أو مسلمًا على أن يبقى على وثنيته .

وعلى الرغم من النشاط التبشيرى المسيحى والعمل الدعوى الإسلامى فى العالم فإنه لم يصبح سببًا من أسباب الصراع بين المسيحية والإسلام . ففى إفريقيا مثلاً يعمل الداعية المسلم بالقرب من المبشر المسيحى وكلاهما يقدم خدماته الإنسانية

والدينية للأفارقة بدون صراع . فالتحول إلى إحدى الديانتين نعمة دينية بالنسبة للإفريقى الوثنى .

ويمكن القول بأن مجال الدعوة أو التبشير يعد من المجالات التى يمكن أن يتعاون فيها الدينان الكبيران من أجل تغيير الأوضاع الدينية للعالم الوثنى وبخاصة إذا علمنا أن عدد التابعين للوثنية يصل إلى أضعاف أعداد المسلمين والمسيحيين ، فهناك ثلاث قارات تسيطر عليها الوثنية وهى إفريقيا وأمريكا اللاتينية وإستراليا وهناك الوثنية المنتشرة فى قارة آسيا وعلى الرغم من الجهود الدعوية والتبشيرية فإن العالم الوثنى فى حاجة إلى تضافر الجهود الإسلامية والمسيحية لتحسين الأوضاع الدينية للوثنيين وتغييرها ، والارتقاء بالحياة الدينية للبشرية بتقديم التوحيد كعقيدة دينية راقية فيها خلاص العالم الوثنى من العبودية للطبيعة.

وهكذا نرى أن تحليل هنتنجتون للصراع بين المسيحيين والمسلمين لايقوم على أسس علمية منطقية بل إنه لايقوم على حقائق موضوعية ، أو على تحليل علمى تؤيده الأدلة والبراهين حين يربط هنتنجتون الصراع بطبيعة كل من الإسلام والمسيحية . ويتجاهل هنتنجتون فى هذا الصدد اعتراف الإسلام بالمسيحية كديانة توحيدية وإعطاء أهلها مكانة مميزة والتعامل معهم على

أساس من مفهوم أهل الكتاب وأهل الذمة . ويتجاهل هنتنجتون أيضًا إيمان المسلمين بدعوة عيسى عليه السلام وإيمانهم بنبوته ورسالته ، وأن ما يرفضونه لأنفسهم هو القول بألوهيته ، وهو أمر قد رفضته من قبل بعض الفرق المسيحية . ومع ذلك لم يجبر الإسلام المسيحيين على هجر دينهم واعتقادهم ، واعتبرهم أهل توحيد ، وطالب المسلمين بالإيمان بعيسى عليه السلام وبدعوته وبالكتاب الذى أنزل إليه . واستناداً إلى هذا كله فالصراع ليس مردوداً إلى الدينين بسبب علاقات القربى الموجودة بينهما والتى بدلاً من اعتبارها سببًا للتقارب اعتبرها هنتنجتون سببًا للتباعد والصراع .

وتبقى كلمة فى تفسير الأسباب الحقيقية للصراع الذى نشأ لبعض الوقت بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى . وهذه الأسباب لاتخرج على حدود الأسباب السياسية والعسكرية والاقتصادية التى سيطرت على كل أشكال النزاع والصراع فى العالم القديم والوسيط والحديث .

لقد فسر الغرب الفتوحات الإسلامية الأولى بأنها فتوحات توسعية استعمارية وساوى بينها وبين أشكال الغزو الاستعمارى الأخرى . والحقيقة أن انتشار الإسلام فى العالم المسيحى هو الذى أدى إلى إثارة الغرب سياسيًا وعسكريًا ضد المسلمين وحاول منع

الإسلام من الانتشار فكان صراع المسلمين من أجل تذليل العقبات التى تقف فى طريق نشر الإسلام ولم يتنازل الإسلام عن المبادىء التى وضع أسسها فى التعامل مع أهل الكتاب . فلم تكن الفتوحات لإرغامهم على الدخول فى الإسلام حيث اعترف الإسلام بديانات أهل الكتاب ولم يرغم أهلها على الدخول قسراً أو بالقوة فى الإسلام ولكن عندما استخدم الغرب القوة لمنع انتشار الإسلام اضطر المسلمون إلى الدفاع عن النفس والدين فنشأ الصراع وهو ليس صراعًا دينيًا كما يحلو للمستشرقين أن يدعوه ولكنه كان من أجل إزالة العقبات التى وضعتها القوى الكبرى أمام حركة الدين الإسلامى مثلما فعلت دولة فارس ودولة الروم وغيرها .

والفتوحات الإسلامية لم تغير الموقف الإسلامى الأوَّلى والمبدئى تجاه المسيحية واليهودية وهو موقف الاعتراف بالديانتين ، وعدم قهر أهلهما على الدخول فى الإسلام ، وعدم الدخول معهما فى صراع دينى لأنهم أهل توحيد .

عوامل زيادة الصراع
بين الإسلام والغرب فى رأى هنتنجتون

ويعطى صموئيل هنتنجتون مجموعة من العوامل المشابهة التى زادت من الصراع بين الإسلام والغرب فى أواخر القرن العشرين وهذه العوامل هى :

١ - أن النمو السكانى الإسلامى خلّف أعداداً كبيرة من الشبان العاطلين والساخطين الذين أصبحوا مجندين للقضايا الإسلامية ويشكلون ضغطًا على المجتمعات المجاورة ويهاجرون إلى الغرب .

٢ - أن الصحوة الإسلامية أعطت ثقة متجددة للمسلمين فى طبيعة وقدرة حضارتهم وقيمهم المتميزة مقارنة بتلك التى لدى الغرب .

٣ - أن جهود الغرب المستمرة لتعميم قيمه ومؤسساته من أجل الحفاظ على تفوقه العسكرى والاقتصادى ، والتدخل فى الصراعات فى العالم الإسلامى تولد استياء شديداً بين المسلمين .

٤ - سقوط الشيوعية أزال عدواً مشتركًا للغرب والإسلام وترك كلا منهما لكى يصبح الخطر المتصور على الآخر .

٥ - الاحتكاك والامتزاج المتزايد بين المسلمين والغربيين يثير في كل من الجانبين إحساساً بهويته الخاصة وكيف أنها مختلفة عن هوية الآخر .

٦ - انهيار أسباب التسامح بالنسبة للآخر في كل من المجتمعات الإسلامية والمسيحية .

ونقدم فيما يلي نقداً لهذه العوامل التي اعتمد عليها هنتنجتون في تحليل مايسميه صراع الإسلام مع الغرب .

ومن أول أخطاء هذا التحليل ربط النمو السكاني في العالم الإسلامي بالبطالة وإيجاد شبان عاطلين ساخطين على مجتمعهم . فمن ناحية النمو السكاني ليس ظاهرة خاصة بالعالم الإسلامي ولكنها ظاهرة عامة يعاني منها العالم الثالث على وجه العموم . ومن ناحية أخرى قد يكون النمو السكاني نعمة لانقمة وذلك في حالة استغلال الطاقات السكانية وتوجيهها لخدمة المجتمع ، كما أن تصدير الطاقة البشرية أصبح واحداً من أهم مصادر الدخل القومي بالنسبة للعديد من البلدان وبخاصة في بلدان العالم الثالث. كما أن وجود استراتيجيات جيدة لاستخدام الطاقة السكانية وبخاصة من الشباب تحول هذا النمو السكاني إلى مصدر قوة .

وهناك أيضاً الربط الساذج بين النمو السكاني والبطالة المجندة، حسب رأى هنتنجتون ، للقضايا الإسلامية ، ويقصد

هنتنجتون أن البطالة تؤدى إلى ظهور جماعات أو حركات إسلامية مناهضة لحكوماتها أولاً وتشكل عامل ضغط على المجتمعات المجاورة وتضطر إلى الهجرة إلى الغرب فى النهاية فتدخل فى صراع مباشر مع الغرب . هذا الفرض والتحليل المبسط والذى لايخلو من سذاجة يحتوى على عدة مغالطات من أهمها :

١ - أن النمو السكانى لايؤدى بالضرورة إلى البطالة الحاقدة .

٢ - أن الشبان العاطلين يجندون للقضايا الإسلامية تشير إلى سوء استخدام لعبارة القضايا الإسلامية . فالقضايا الإسلامية تهم كل المسلمين وليست الشغل الشاغل للشباب العاطل . ويريد هنتنجتون أن يقول ، ولكن بطريقة ملتوية ، أن البطالة تولد مايسميهم الغرب بالأصوليين أى المتشددين دينيًا والمهتمين من وجهة نظره بالقضايا الإسلامية . وهذا ربط واضح بين مايسمى بالأصولية والقضايا الإسلامية . وهو تخصيص لايخلو من خبث فالمجتمع الإسلامى بأسره تهمه قضاياه الإسلامية وهى ليست محل اهتمام المتشددين دينيًا فقط كما أن هناك فارقًا بين الاهتمام الأصولى بالقضايا الإسلامية وبين الاهتمام الإسلامى العام . فالأصولية - بالمعنى الغربى - تخلق مشاكل دينية من نوعية خاصة يتم من خلالها استغلال الدين وتوجيهه لخدمة السياسة ولتحقيق مصالح سياسية . ويريد هنتنجتون هنا أن

يعزل الإسلام وقضاياه عن المسلمين عمومًا ويخصص هذه القضايا للأصوليين المتشددين من دون المسلمين .

ثم يشير هنتنجتون إلى أن هذا الشباب " الأصولى " المجند يشكل ضغطًا عى المجتمعات المجاورة، كما أنه يهاجر إلى الغرب فيشكل مشكلة بالنسبة للغرب . وهنا يخطىء هنتنجتون مرة أخرى حين يجعل سبب الهجرة الوحيد هو الضغط الذى يمارسه الشباب الأصولى المتشدد مع أن أسباب الهجرة معروفة وهى : علاج مشاكل اقتصادية ، والرغبة فى تحسين الأوضاع الاقتصادية ، والاستفادة من فرص عمل ليست موجودة فى الوطن الأم . وهو أمر مشروع وتجيزه القوانين الدولية . وليس كل من هاجر إلى الغرب أصولى متشدد . فباب الهجرة مفتوح للجميع . وتظهر مغالطة أخرى وهى أن الغرب عادة لايتيح الفرصة للهجرة بهذا الشكل السهل الذى أبداه هنتنجتون . إن باب الهجرة أصبح مقفولاً أمام شباب العالم الثالث بسبب الإجراءات التعسفية التى يتخذها الغرب لمنع الهجرة إليه من بلاد العالم الإسلامى ، وعندما يسمح الغرب بهجرة بعض من يسميهم بالأصوليين فهو إنما يفعل ذلك لاستخدام هذه العناصر ضد أوطانها مثلما يحدث فى حالة تبنى المعارضة وقبول المعارضين كلاجئين سياسيين وغير ذلك من أفعال يقوم بها الغرب من أجل مصلحته الخاصة .

يعتبر صموئيل هنتنجتون الصحوة الإسلامية سببًا فى تجدد ثقة المسلمين فى طبيعة حضارتهم وقدرتها ، وفى قيمهم المتميزة مقارنة بقيم الحضارة الغربية . ويعتبر هذا أحد أسباب الصراع بين الإسلام والغرب ، أو على حد تعبيره أحد العوامل التى زادت من الصراع بين الإسلام والغرب(٦) .

ومضمون رؤية هنتنجتون هنا تتركز فى أن " الصحوة الإسلامية" زادت من صراع الإسلام مع الغرب . وهذه عبارة غامضة ولاتخلو من خبث . فعبارة الصحوة الإسلامية " ليست العبارة الصحيحة التى يجب استخدامها فى هذا المقام المرتبط بالصراع بين الحضارات عند هنتنجتون إذ أن ترجمتها المباشرة هى أن التدين يزيد من حدة الصراع بين الإسلام والغرب . وأن العالم الإسلامى كلما عاد إلى الدين وازداد تدينًا ، كلما تفسخت علاقاته بالغرب وكلما زاد عداوة وكراهية للغرب وحضارته وقيمه. وهذا أمر مغلوط لأن التدين الحقيقى لايقف عقبة فى طريق العلاقات مع الغرب وحضارته كما أن التدين المسيحى فى الغرب ليس عقبة فى طريق علاقة الغرب بالعالم الإسلامى . والعكس هو الصحيح فالتدين يحفظ هذه العلاقات ويرعاها كما كان الحال فى ماضى العلاقات الإسلامية المسيحية قبل عصر النهضة الأوربية حيث كان التفاعل الحضارى بين الثقافتين الإسلامية والغربية على أشده ، ورغم تدنين العالم الإسلامى فإن الغرب استفاد من معطيات الحضارة

الإسلامية ومنجزاتها وقام بترجمة هذه المنجزات إلى اللغات الأوربية وبنيت الحضارة الغربية منذ عصر النهضة على أساس من العلوم الإسلامية والإنجازات العلمية الإسلامية . ولم يشعر الغرب بحرج فى الأخذ عن الحضارة الإسلامية وهى حضارة دينية فى أساسها .

لذلك لابد من البحث عن معنى آخر لعبارة " الصحوة الإسلامية" عند هنتنجتون . ولايحتاج الأمر إلى مجهود كبير فى الوصول إلى هذا المعنى الذى يستغله هنتنجتون فى نظريته للتدليل على حتمية الصراع بين الإسلام والغرب ، فعبارة " الصحوة الإسلامية " ذات المعنى الإيجابى عند المسلمين يغير هنتنجتون معناها لتصبح عنده مشيرة إلى " الحركات الإسلامية " المعاصرة التى استخدمت الدين استخدامًا سياسيًا لتحقيق أهداف سياسية والتى اصطلح على تسميتها أحيانًا باسم " الإسلام السياسى " وأحيانًا أخرى باسم " الإسلام المسلح Militant Islam وأحيانًا أخرى بل والأشهر إطلاق اسم الأصولية Fundamentalism عليها .

وخطأ هنتنجتون الكبير هو التلاعب بالمصطلحات والمسميات فهو يستخدم عبارة " الصحوة الإسلامية " فى الوقت الذى يقصد فيه الحركات الدينية السياسية التى ظهرت فى بعض بلاد العالم الإسلامى مستخدمة الدين لتحقيق أهدافها السياسية ، ومستخدمة العنف المسلح كوسيلة لتحقيق هذه الأهداف . والخطأ هنا هو

الخلط بين الشعور الديني الإسلامى التقليدى الموجود عند كل المسلمين حين يلتزمون بأمور دينهم ويؤدون العبادات المطلوبة منهم ، ويحققون الصلة بالله من خلال هذه العبادات وبين الفكر الدينى المتطرف الذى يستغل الدين ويوظفه سياسيًا . والحقيقة أنه ليست الصحوة الإسلامية هى التى تسببت فى توتر العلاقات مع الغرب ، ولكن التطرف الدينى الذى تبنته الحركات السياسية الإسلامية هى التى تسببت فى هذا التوتر ، وذلك بسبب التوجه العدائى الذى تبنته هذه الحركات السياسية ضد الغرب . كما أنها سببت توتراً أشد مع أهل الأديان الأخرى داخل البلاد الإسلامية وذلك بسبب عدائها للأديان الأخرى والأكثر من هذا أن سببت توتراً أكبر مع بقية المسلمين داخل البلاد الإسلامية لأن هذه الحركات الإسلامية المتطرفة كفّرت المجتمع المسلم ، واحتكرت الإسلام والإيمان لنفسها ، ودخلت فى صراع مرير مع بقية المسلمين ومع المؤسسات الدينية التقليدية مثل الأزهر.

والخطأ الذى وقع فيه هنتنجتون هو أنه لم يفرق بين الحركات السياسية الإسلامية (الأصولية) وبين الدين الإسلامى . واعتبر الإسلام مسئولاً عن زيادة حدة الصراع مع الغرب والإسلام برىء من هذا الاتهام . ويخطىء مرة ثانية حينما يطلق عبارة " الصحوة الإسلامية " على هذه الحركات المتطرفة المستغلة للدين . وعلى

كل حال هذا ليس خطأ هنتنجتون وحده فالإعلام الغربى والاستشراق والمؤسسات السياسية الغربية كلها فى الحقيقة مسئولة عن هذا الخلط المقصود ، وهى مسئولة عن هذا التعميم بالنظر إلى المسلمين جميعًا على أنهم متطرفون ، وأن الإسلام مرادف للإرهاب ، وعدم التفرقة بين الإسلام كدين وحضارة وبين جماعات إسلامية متطرفة تظهر فى كل الأديان وتتبنى موقفًا دينيًا متعصبًا ومتشدداً ضد كل من يقف فى طريقها من أهل دينها أولاً ومن أهل الأديان الأخرى ثانيًا .

يعطى هنتنجتون سببًا آخر من أسباب زيادة الصراع بين الإسلام والغرب وهو أن جهود الغرب لتعميم قيمه ومؤسساته من أجل الحفاظ على تفوقه العسكرى والاقتصادى والتدخل فى الصراعات فى العالم الإسلامى تولد استياءً شديداً بين المسلمين .

وهنا يضع هنتنجتون يده على واحد من أهم أسباب التوتر فى العلاقات بالغرب ولكنه يقدم هذا السبب من خلال لغة تتضمن الشعور بأن المسلمين ليسوا على حق فى الشعور بالاستياء وكأن هنتنجتون يريد أن يقول أنه يجب على المسلمين أن يرحبوا بجهود الغرب لنشر قيمه ، وأن يقبلوا تدخل الغرب فى الصراعات الموجودة فى العالم الإسلامى لأن هذا فى مصلحتهم . وفى هذه اللغة يستخدم هنتنجتون كلمات مثل " جهود " و " استياء " ليشير

إلى عدم تقدير المسلمين للدور الذى يقوم به الغرب ولذلك فهذه " الجهود " لايجب أن تؤدى إلى زيادة الصراع لأنها جهود فى صالح العالم الإسلامى .

ولا يريد هنتنجتون أن يوجه الاتهام بشكل مباشر إلى الغرب ويعتبره بهذه " الجهود " مثيراً للصراع والتوتر فى علاقته بالعالم الإسلامى . بل هو هنا يتهم المسلمين لسوء فهمهم وعدم تقديرهم لما يسميه بجهود الغرب . وهذا يذكرنا مرة أخرى بعبء الرجل الأبيض ومسئوليته الحضارية تجاه العالم ككل، ومن بينه العالم الإسلامى .

وينتقل هنتنجتون إلى ذكر سبب آخر مهم لزيادة الصراع بين الإسلام والغرب وهو سقوط الشيوعية ويبدأ بداية موفقة فى عرض هذا السبب ثم ينتهى نهاية مخزية فى استنتاجاته الأخيرة عن كون سقوط الشيوعية سببًا من أسباب زيادة الصراع بين الإسلام والغرب.

أما البداية الموفقة فهى فى قوله إن سقوط الشيوعية " أزال عدواً مشتركًا للغرب والإسلام " أما النتيجة الخاطئة فهى قوله أن سقوط الشيوعية ترك الغرب والإسلام لكى " يصبح كل منهما الخطر المتصور على الآخر "(٧) .

فمن ناحية مثلث الشيوعية عدواً مشتركًا للغرب والإسلام ولكن ليس من منطلق موقف واحد مشترك فالشيوعية لم تكن عدوة

للغرب على المستوى الدينى كما أنها كانت عدوة للغرب الرأسمالي وليس لكل الغرب بل إن هناك أحزابًا وجماعات شيوعية تواجدت داخل الغرب نفسه . أما عداوة الإسلام للشيوعية فهى قائمة على أساس من الموقف من الدين . فالشيوعية رفضت الدين واعتبرته أفيون الشعوب واضطهدت الأديان ، ولذلك تبلور موقف إسلامي مضاد للشيوعية بسبب رفضها للدين عمومًا وبسبب اضطهادها لشعوب إسلامية خضعت للاتحاد السوفيتي الذى فرض عليها الشيوعية فرضًا ومنعها من ممارسة دينها الإسلامى .

أما الموقف الغربى من الشيوعية فلم يكن موقفًا دينيًا فى المقام الأول ، ولكنه موقف أيديولوجي. فالغرب الرأسمالى رفض النظام الاقتصادى الشيوعى، ودافع عن الرأسمالية ضد انتشار الشيوعية خارج حدود الاتحاد الشوفيتي وداخله . والموقف الغربى من الشيوعية لم يكن موقفًا دينيًا لأن الغرب العلمانى رافض للدين مثله مثل الشيوعية التى هى بلاشك ضرب من ضروب العلمانية ولكن فى ظل حكم ديكتاتورى يمنع ممارسة الدين بالقوة ، بينما العلمانية فى الغرب تطورت داخل إطار ديمقراطى يسمح لمن يريد بمزاولة الدين كما يسمح بوجود علمانية دينية إلى جوار العلمانية الرافضة للدين . والمبدأ الأساسى فى علمانية الغرب هو فصل الدين عن الدولة والاعتراف بالدين كسلوك شخصى أو نشاط شخصى غير مؤثر على السياسة العامة للدولة .

أما الخطأ الأكبر فى تحليل هنتنجتون فهو تصوره أن سقوط الشيوعية العدو المشترك أدى إلى تصور الغرب بأن الإسلام عدوه ، وتصور الإسلام بأن الغرب عدوه . وللأسف الشديد أن فكرة هنتنجتون هذه كان لها وجود سابق فى الغرب وقوى هذا الشعور بعد السقوط الفعلى للشيوعية . فمن الأمور الفكرية الشائعة فى الغرب حاليًا أنه لم يبق سوى الإسلام كعدو للغرب ، أى أن الغرب تخلص من كل أعدائه فيما عدا الإسلام الذى يجب أن يتفرغ الغرب للتخلص منه وتصفيته كعدو أخير للغرب وللحضارة الغربية .

والحقيقة أن هذه النتيجة التى توصل إليها هنتنجتون خاطئة على مستويين . فالمسلمون من ناحيتهم لايعتقدون أن الغرب عدو لهم . كما أن الغرب كمجتمع وحياة ليس لديه هذا التصور بأن الإسلام عدو الغرب بعد سقوط الشيوعية . إن هذه أفكار مغرضة لايؤمن بها عامة الشعب ولكن يُرَوِّج لها مجموعة من رجال السياسة ورجال الإعلام الذين لهم مصالح سياسية معينة ويديرون دفة السياسة العالمية لتحقيق هذه المصالح . ومن مصلحة هذه الجماعات السياسية والإعلامية أن يكون هناك صراع وأن يستمر هذا الصراع إلى أن يحقق الغرب هيمنته عى العالم الإسلامى ، أو أن ينهى الوجود الإسلامى برمته وكما تم التخلص من الشيوعية يجب التخلص من الإسلام . إن فكرة الإسلام كخطر مهدد للغرب وحضارته وَهْمٌ مصطنع من أجل استمرارية مفهوم الصراع والتحدى الذى تقوم عليه الحضارة الغربية عند منظِّريها وفلاسفتها .

يضيف هنتنجتون عاملاً آخر من عوامل زيادة الصراع بين الإسلام والغرب وهو أن الاتصال والامتزاج المتزايد بين المسلمين والغربيين يثير فى كل من الجانبين إحساسًا بهويته الخاصة واختلافها عن هوية الآخر . ويقول بأنه خلال الثمانينيات والتسعينيات انهار التسامح بالنسبة للآخر فى كل من المجتمعات الإسلامية والمسيحية (ص٣٤٢) .

وبداية نقول إن الاتصال بين الشعوب ليس بالضرورة أن يولد صراعًا كما يدعى هنتنجتون . فالاتصال السليم القائم على أسس من الاعتراف بالآخر وعدم الرغبة فى الهيمنة واحترام الهوية والذات لايمكن أن يكون سببًا فى توليد الصراع . وهناك مجتمعات كثيرة تقوم على أساس من التعددية العرقية والدينية والثقافية وتمكنت من خلال الدستور والقانون والديموقراطية أن تزيل أسباب التوتر الناجمة عن اختلاف الثقافات والأديان والأعراق . لقد تمكنت الدولة الإسلامية قديمًا من تحقيق هذا التوازن وعاش اليهود والمسيحيون والهندوس وغيرهم فى ظل الحكومة الإسلامية ينعمون بالتسامح على كل مستوياته ويحققون هويتهم الدينية والثقافية . ويمكن القول بشكل نسبى أن بعض المجتمعات الحديثة تمكنت من تحقيق هذا التعايش بفضل الدساتير والقوانين المنظمة لعلاقات الأفراد وبتأثير الديموقراطية كنظام للحكم يقوم على

المساواة . ويمكن أن نضرب مثالاً على ذلك بالولايات المتحدة الأمريكية التى تتكون من العديد من الأعراق والأديان والثقافات ومع ذلك تمكنت من خلق مجتمع تحكمه القوانين التى تحاول أن تساوى بين الجميع وإن كان بشكل نسبى . المهم هنا أن حكم هنتنجتون بأن الاختلاط يؤدى إلى الصراع حكم ليس عامًا وحكم نسبى . والحقيقة أن معظم شعوب العالم تحتوى على أقليات إثنية ودينية وثقافية ولايوجد شعب ليست له صلات بغيره عبر التاريخ تؤدى إلى احتكاكه واندماجه فى الآخرين . والحضارات القوية المتسامحة تستطيع أن تصهر شعوبها المختلفة فى بوتقة واحدة وتضمن حداً أدنى من التعايش والاندماج . ولايوجد أدنى خوف من الحفاظ على الهويات المتعددة داخل الحضارة الواحدة فرغم الاختلاف الإثنى والدينى والثقافى فإن هناك مبادىء وقوانين ومصالح مشتركة تضمن صحة الاندماج بل وتُرِّغب فيه . فالهجرة مثلاً إلى البلاد الأوربية والولايات المتحدة وكندا تمثل مطلبًا مرغوبًا فيه لدى العديد من أبناء البلدان الأخرى دون تخوف من ذوبان أو اندماج مع قبول للقوانين والأعراف والسياسات التى يتبعها البلد المهاجر إليه . وهجرة أعداد من المسلمين إلى البلاد الأوربية لايخرج على هذا الإطار . فالمجتمع الأوربى يتيح الحرية فى ممارسة العقيدة ويضمن الحريات المختلفة والحقوق ولايعرض

الهوية للخطر ، ولايخلق صراعًا أو توتراً فهناك آلاف من المسلمين هاجرت إلى الغرب وعاشت فيه دون أن تكون مصدر خطر عليه أو أن يكون الغرب خطراً عليها .

ويلمح هنتنجتون إلى أن التسامح انهار فى كل من المجتمعات الإسلامية والمسيحية خلال العقود الأخيرة . وهو حكم ليس مبنيًا على أدلة واضحة فالمجتمع الإسلامى لم يتغير فى تعامله مع الآخر . ولا يجب خلط الأمور ببعضها البعض . فالصراع الدينى الذى ظهر فى بعض المجتمعات الإسلامية ليس صراعًا حقيقيًا إنما هو صراع مفتعل لايعبر عن توجه دينى أو سياسة حكومية عامة تجاه غير المسلمين . هذا الصراع من فعل جماعات دينية متطرفة ومنشقة عن بقية المجتمع المسلم وعداؤها موجه إلى الجميع مسلمين وغير مسلمين بدليل أنها تكفر المسلمين قبل أن تكفّر غير المسلمين . ومن الخطأ الشديد التعميم وإصدار أحكام عامة فيها إساءة إلى أمة بأسرها ، وفيها جهل أو تجاهل بالشرائع والمبادىء التى سنّها الإسلام لتعامل المسلم مع غير المسلم ، وفيها إنكار للعلاقات التاريخية التى ربطت المسلمين بغير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان . ومثل هذه الأحكام العامة ضارة لأنها تشوّه الصورة العامة وتثير الشعوب ضد أقلياتها ، وتثير الأقليات ضد الشعوب التى تعيش بينها ، وتؤدى إلى توتر فى العلاقات ينشب عنه صراع

لاضرورة له . وفى الوقت الذى حافظت فيه المجتمعات الإسلامية على علاقاتها الجيدة بمواطنيها من أهل الأديان الأخرى تسببت هذه الأحكام العامة والنظريات القائلة بالصدام والصراع فى توتر علاقة الغرب بأقلياته المسلمة المنتشرة فى البلاد الأوربية وكندا والولايات المتحدة . وقد بدأت نظرة الشعوب الغربية إلى المسلمين تتغير. والآن توجه إليهم التهم الخاصة بالإرهاب لا لشىء إلا لأنهم مسلمون ومصدر للخطر بطبيعة حضارتهم ودينهم كما أشاعت نظريات صدام الحضارات .

إن ما يعيب نظرة صموئيل هنتنجتون إلى علاقة الحضارة الغربية بالحضارات الأخرى أنها نظرة صدامية تستند إلى قاعدة من العداء الصريح للحضارات الأخرى . وهو عداء له خلفية عنصرية استعمارية لاتستطيع أن ترى الحضارة الغربية سوى فى مكان الحضارة المهيمنة الغالبة والمسيطرة، ولاتستطيع أن ترى فى الحضارات الأخرى سوى التخلف والقابلية للخضوع والتبعية .

لقد سيطرت على هنتنجتون حالة هستيرية من الخوف على الحضارة الغربية ، والتنبؤ بانحلالها وتخلفها وتفوق الحضارات الأخرى عليها . ويبدو من تحليله للوضع الحضارى العالمى أنه لايؤمن بالتفاعل بين الحضارات ولايرى سوى صراع الحضارات وصدامها عبر التاريخ . لقد وضع عينه على سلبيات العلاقات بين الحضارات فى التاريخ وأغفل إيجابيات هذه العلاقات . وهى

بلاشك اتسمت بالقوة من ناحية وبالاستمرارية من ناحية أخرى . أما صفة القوة فتتجلى فى أن الحضارات اعتمدت على بعضها البعض وكل حضارة بنت نفسها تقريبًا على منجزات الحضارات السابقة عليها . أما صفة الاستمرارية فتظهر فى أن الصدام بين الحضارات عادة مايزول بزوال أسبابه وهى بالتأكيد ليست أسبابًا حضارية بل هى أسباب سياسية وأيديولوجية فعادة مايتلو عصور الصراع السياسى والعسكرى عداء حضارى ودينى . ولكن مع زوال الأسباب السياسية للصراع تتفاعل الحضارات مع بعضها ، وتدخل فى مرحلة التبادل الحضارى القائم على الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر . يتم فيها تناسى الصراعات السياسية والأيديولوجية وازدهار العلاقات الإنسانية على المستوى الحضارى من خلال هذا التفاعل المؤدى إلى التعاون الإنسانى .

إن صموئيل هنتنجتون لم يقرأ تاريخ العلاقات بين الحضارات الغربية والحضارات الأخرى وبخاصة الحضارة الإسلامية قراءة جيدة. ولو فعل لخرج بنتائج مختلفة تمامًا عن النتيجة النهائية التى توصل إليها وهى أن الحضارات متصارعة ومتصادمة ، وأن العصر القادم هو عصر صدام الحضارات .

ونضرب له مثالاً واحداً من خلال تاريخ العلاقات الحضارية بين المسلمين والغرب لنرى أن الصدام السياسى عادة ما كان ينزوى جانبًا ويبرز دائمًا التفاعل الحضارى الذى اكتسب صفة الاستمرارية حتى فى أحلك الظروف السياسية . فمع ظهور الإسلام نشأ صراع

سياسى بين المسلمين والغرب لأسباب سياسية انتهت فى التاريخ لكى يبدأ تفاعل حضارى قوى حيث أحس المسلمون بحاجة ماسة إلى العلم الغربى فأنشأوا إحدى أكبر حركات الترجمة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، وقاموا بترجمة التراث العلمى اليونانى إلى اللغة العربية بمشاركة يهودية مسيحية إسلامية ، ومن خلال عملية الترجمة تم الحفاظ على التراث اليونانى الذى بدأ يتعرض للضياع مع تدهور الغرب حضاريًا . وقام العلماء المسلمون بشرح هذا التراث العلمى وتفسيره ، وتحقيقه وتصحيحه ، والإضافة إليه ، وبناء الحضارة المادية الإسلامية على أساسه بالإضافة إلى ما أخذه المسلمون من علوم الهند وفارس وغيرهما .

وتبدأ مرحلة صراع سياسى عسكرى جديدة بين المسلمين والغرب خلال فترة الحروب الصليبية ويكتشف الغرب عظمة الحضارة الإسلامية وبخاصة فى المجال العلمى والتكنولوجى فيبدأون مع انحسار الحروب الصليبية فى نقل معارف المسلمين وعلومهم إلى اللغة اللاتينية ومنها إلى اللغات الأوربية وعن طريق اللغة العربية مباشرة ، أو عن طريق لغة وسيطة هى اللغة العبرية . وكما بنى المسلمون حضارتهم المادية على العلم اليونانى بدأ الغرب يبنى نهضته الجديدة على أساس من علوم المسلمين ، وأسس الغرب ثانى أكبر حركة ترجمة فى تاريخ الفكر الإنسانى وذلك من اللغة العربية . ودخل الغرب فى عصر النهضة الأوربية،

ومن بعده فى عصر التنوير، بفضل الثقافة العلمية الإسلامية التى تمت ترجمتها واستيعابها وشرحها والإضافة إليها .

ثم تبدأ مرحلة جديدة من الصراع السياسى العسكرى وهى المرحلة الاستعمارية الحديثة التى انتهت بخضوع معظم بلاد العالم الإسلامى للسيطرة الغربية . وينتهى هذا الصراع بحصول البلاد الإسلامية على استقلالها لتبدأ فى بناء نهضتها الحديثة وذلك بتأسيس ثالث أكبر حركة ترجمة من اللغات الأوربية الحديثة إلى اللغة العربية . وهى المرحلة التى لانزال نعيشها الآن . فقد أحس المسلمون بحاجتهم الماسة إلى العلم الغربى والتكنولوجيا الغربية المتقدمة لبناء المدنية الحديثة فى بلادهم فأرسلوا البعثات التعليمية إلى بلاد الغرب - كما فعلت أوربا من قبل حين أرسلت البعثات التعليمية إلى مراكز الحضارة الإسلامية وبخاصة فى الأندلس - وتمت ترجمة العديد من الأعمال العلمية اللازمة . ولايزال المسلمون ينهلون من العلم الغربى ويحاولون الاستفادة منه فى بناء نهضتهم الحديثة والمعاصرة.

ويتضح من هذا العرض التاريخى الموجز لتاريخ العلاقات الحضارية بين المسلمين والغرب أن التفاعل الحضارى كان السمة الأساسية فى علاقة الحضارة الإسلامية مع الحضارة الغربية ، وأن الحضارتين اعتمدتا على بعضهما البعض فى بناء النهضة العلمية فى الوقت الذى انحسر فيه الصراع السياسى والعسكرى ، فالبقاء فى النهاية للاتصال والتفاعل والالتقاء الحضارى .

صدام الحضارات
ومستقبل العلاقات بين الغرب والشرق

يدور فكر هنتنجتون عن صدام الحضارات حول تصور لمستقبل العلاقات بين الغرب والشرق يبدأ بتدهور الحضارة الغربية ، وحدوث خلل فى الميزان الثقافى لصالح الحضارات غير الغربية . فهو يرى أن ازدهار الحضارات الأخرى يمثل خطراً على الحضارة الغربية ، ويتوقع الصدام بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى حيث ستتكاتف الحضارات الأخرى فى تحالف ثقافى ضد الحضارة الغربية وهيمنتها ، وهو ينبه الغرب إلى هذا الخطر ويحذر منه .

ويعتبر هنتنجتون أن المواجهة الحضارية الأكثر عنفًا ستكون بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية التى ستدعمها بقية الحضارات الشرقية المشتركة معها فى الحوار الجغرافى . ويربط بين الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية ويعتبرهما معًا مصدر التهديد القوى والمباشر لمستقبل الحضارة الغربية . ويرى أن المواجهات الأكثر عنفًا ستجمع المسلمين بباقى الحضارات ضد الحضارة الغربية وسيكون الانقسام الأساسى على المستوى العالمى بين الكبرياء الغربى واللاتسامح الإسلامى والرغبة فى تأكيد الذات من جانب الصين . ويؤكد على وجود محور تعاونى إسلامى كونفوشيوسى يجمع مجموعة من الدول الإسلامية

والكونفوشيوسية ، وهو محور مهدد للمصالح الغربية فى العالم ، ولذلك يطالب بمنع هذا المحور من التسلح العسكرى وبخاصة التسلح النووى ، ويطالب أيضًا بمنع الهجرة إلى الغرب حماية للوحدة الثقافية والاجتماعية الغربية . ويعتقد أن الاختلافات الثقافية سيكون لها دور كبير فى تحديد طبيعة العلاقة بين الآسيويين والأمريكيين ، وأن الشرق الأقصى سيصبح قلب الاقتصاد العالمى . ويرى أن شعوب الحضارات الأخرى تتجه إلى الاهتمام بقيمة العمل والانتاج والانضباط والالتزام . ويعترف بدور الدين والأخلاق فى انبعاث الحضارات غير الأوربية ، ودفعها إلى الأخذ بقيم العمل والانتاج والتحديث المضاد للتغريب .

وتنطوى نظرية هنتنجتون على عدة أسس تحتوى على مغالطات واضحة وتصر على الصدام بين الحضارات كطبيعة أولاً وكنتيجة حتمية ثانيًا .

وتتضح المغالطة الأولى فى الحكم التشاؤمى على الحضارة الغربية والقول باحتمال سقوطها . وبدلاً من بذل المجهود الفكرى لإنقاذ الحضارة الغربية من الانحلال يوجه الاتهام إلى الحضارات الشرقية وغيرها ويعتبر ازدهارها تهديداً لمستقبل الحضارة الغربية. وبدلاً من وضع الحلول الداخلية لأزمة الحضارة الغربية يفتح هنتنجتون جبهة جديدة للصراع مع الحضارات الأخرى ، ويبحث عن عدو يلقى عليه أسباب السقوط الحضارى الغربى من

ناحية ويقول بالصدام فيمنع الحضارة الغربية من الاستعانة بالحضارات الأخرى فى علاج أزمتها الداخلية .

إن هنتنجتون لم يقرأ التاريخ جيداً لكى يعرف أن القول بالوفاق بين الحضارات والالتقاء بينها ربما يؤدى إلى الحصول على تصور لعلاج الحضارة الغربية وإخراجها من أزمتها . وهو بالإصرار على صدام الحضارات يعجل بسقوط الحضارة الغربية ، ويمنعه كبرياؤه من أن تتفاعل الحضارة الغربية مع الحضارات الأخرى ذلك التفاعل الإيجابى الذى أفادها قديمًا ويمكن أن يفيدها حديثًا ...

وبدلاً من البحث عما لدى الحضارات الأخرى من إمكانيات للتعاون والالتقاء يطور هنتنجتون رؤية صدامية وكان الأولى به أن يبحث فى أسباب انحلال الحضارة الغربية من ناحية ، وفيما يمكن أن تقدمه الحضارات الأخرى من وجوه تعاون تساعد حضارة الغرب وتعيد لها بعض التوازن المفقود فيها .

إن الرؤية المسيطرة على ذهن صموئيل هنتنجتون هى الرؤية الاستعمارية القديمة التى تضع الحضارة الغربية فى مرتبة السيادة على الحضارات الأخرى . ولاتقنع بهذا بل تتجه إلى ضرورة فرض النموذج الحضارى الغربى على العالم بأسره . ويرى فى الحضارة الغربية ، حتى وهى فى أزمتها ، حضارة التقدم والحضارات الأخرى حضارات التخلف والتبعية . إنها نفس العقلية الاستعمارية

القديمة التى أقامت العلاقات مع الآخر على أساس من مبادىء القوة والهيمنة والعنصرية ، ولا ترى فائدة من الالتقاء الحضارى أو التفاعل بين الحضارات لأنها ذهنية استعمارية وضعت الحضارة الغربية (حضارة الرجل الأبيض) فى كفة وكل الحضارات الأخرى فى الكفة الثانية لترجح الكفة الأولى . ولايزال يفكر هنتنجتون من منطلق عبء الرجل الأبيض المسئول عن تقدم العالم، والذى يحمل الرسالة الحضارية إلى بقية العالم المتخلف .

إن نظرية صدام الحضارات تسير فى الاتجاه المضاد لمسيرة التاريخ ، وترى فى الحضارة الغربية ، رغم مواتها ، القاعدة الحضارية الأساسية لوجهة العالم الحضارية ، وتنكر حق الآخرين الحضارى فى الاختلاف ، ولاترضى بالتقاء الحضارات ولا بالتوافق الحضارى بين الشعوب . إنها العنصرية الحضارية فى ذروتها وفى زمن ينتصر أهله على العنصرية فى معركة تلو المعركة مما يؤكد أن هنتنجتون بنظريته يسير ضد التيار الحضارى العالمى وضد الاتجاه العالمى إلى التعايش الحضارى .

يستمد هنتنجتون رؤيته عن الإسلام وحضارته من صراعات المسلمين مع غيرهم ومع أنفسهم ، ولايستمد هذه الرؤية من الإسلام ذاته أو من حضارته . إنه يشاهد واقعًا حديثًا للمسلمين ويبنى أحكامه الكلية على الإسلام وحضارته من خلال هذا الواقع

الذى يراه ، ويعطى للإسلام مكانًا بارزاً فى صراع الحضارات وفى العدواة للغرب . فالإسلام ، من وجهة نظره ، له ما يسميه بالحدود الدموية ، فهناك نسبة مرتفعة لمشاركة المسلمين فى الصراعات مع الحضارات الأخرى ويفسر ذلك من خلال إطلاق حكم عام على أن المسلمين ينزعون إلى الحرب والعنف ، ويصعب اندماجهم مع شعوب الحضارات الأخرى. ثم يطلق حكمه الأخير بأن الإسلام مصدر لعدم الاستقرار فى العالم ..، وقدم إحصائية بأن ١٩ صراعًا من بين ٢٨ صراعًا هى صراعات بين مسلمين ومسيحيين وبقية الصراعات بين مسلمين وشعوب أخرى غير مسيحية ويستشهد بآراء علماء من الغرب ، منهم بارن بوزان الذى يرى عدة أسباب لنشوب حرب مجتمعية باردة بين الغرب والإسلام تقف فيها أوربا على خط المواجهة ، وهذه الحرب الباردة لها علاقة بالخصومة التاريخية بين المسيحية والإسلام ، وبعلاقة القيم العلمانية بالقيم الدينية وبالغيرة من القوة الغربية وبالاستياء من السيطرة الغربية، وبالشعور بالامتهان من فشل الحضارة الإسلامية ونجاح الحضارة الغربية فى القرنين الأخيرين (٨) .

ويعتبر هنتنجتون أن الحرب الباردة مع الإسلام سوف تساعد على تقوية الهوية الأوربية فى وقت حاسم بالنسبة للوحدة الأوربية . وهناك كما يدعى استعداد لدى الغرب لدعم الحرب الباردة مع الإسلام وتبنى سياسات تشجع على هذه الحرب . ويستشهد مرة

ثانية بالمستشرق اليهودى برنارد لويس الذى يدعى أن هناك حالة أو حركة تتجاوز مستوى القضايا والسياسات والحكومات . وهى حالة صدام حضارات تمثل رد فعل تاريخى لتنافس قديم ضد تراثنا اليهودى المسيحى وحاضرنا العلمانى(٩).

وتقوم هذه الرؤية بنتائجها المعلنة على أسس فكرية خاطئة أولها كما ذكرنا الحكم على الإسلام وحضارته من خلال أفعال بعض المسلمين ، ومن خلال صراعات سياسية إسلامية وغير إسلامية يزخر بها التاريخ المعاصر . ومن غير العدل أن ننسب هذه الصراعات إلى الإسلام وحضارته وإلا جاز لنا أن ننسب الصراعات التى يشترك فيها مسيحيون إلى المسيحية وكذلك الصراعات التى يشترك فيها يهود إلى اليهودية وهكذا . وكان من الموضوعية أن يرد هنتنجتون الصراعات الموجودة إلى أسبابها الحقيقية وهى أسباب سياسية لاعلاقة لها بالدين .

ويستند هنتنجتون إلى السياسات العنيفة التى تنتهجها بعض الحركات السياسية الإسلامية لكى يطلق حكمه العام بأن الإسلام دين إرهابى دموى ، وأن المسلمين ينزعون بطبيعتهم إلى الحرب والعنف، وأن الإسلام خطر على الغرب ، ومصدر للانتشار النووى والإرهاب . إن هذه الأحكام العامة على الإسلام والمسلمين تشير إلى جهل كبير بحقيقة الإسلام وحضارته ، أو إلى تجاهل للطبيعة

الحقة للإسلام وحضارته . وبنفس هذا المنطق الذى اتبعه هنتنجتون يجوز لنا أن نحكم على اليهودية والمسيحية بأنها ديانات عنف وإرهاب وتطرف ومصدر للخطر على الإنسانية لو فسرنا بعض الصراعات الموجودة على الساحة بأنها تعود إلى الدين وطبيعته مثل صراع الكاثوليك مع البروتستانت فى أيرلندا أو الصراع الإسرائيلى مع الفلسطينيين . ومن السهل هنا أن نحكم على اليهودية بنفس الحكم الذى أطلقه هنتنجتون على الإسلام وحضارته ونقول بأن اليهودية والمسيحية من ديانات الإرهاب والتطرف والعنف .

والذى لايريد أن يقره هنتنجتون أن ظاهرة الإرهاب ظاهرة عالمية أسبابها سياسية ولاعلاقة لها بالأديان التى يتبعها المتبنون للإرهاب كسياسة . فالأديان من طبيعتها تدعو إلى الحب والسلام والتسامح والتعايش ولايوجد دين يدعو إلى عكس ذلك . وكان الأولى بهنتنجتون أن يبحث عن الأسباب الحقيقية للصراعات بدلاً من نسبتها إلى الإسلام الأمر الذى يوثر بلا شك على رجال السياسة وعلى رجال الإعلام . وهناك أصوات كثيرة فى الغرب تأثرت بمقولات هنتنجتون وبرنارد لويس وعبروا عن مخاوفهم من الإسلام كمنافس كونى للغرب كما أعلن عضو فى إدارة كلينتون أن الإسلام خطر على الغرب مثل الشيوعية كما عبر عن ذلك السكرتير العام لحلف شمال الأطلنطى .

إن إطلاق مثل هذه الأحكام العامة الخاطئة لاتؤثر فقط على رجال السياسة والإعلام بل إنها تؤثر على الرأى العام العالمى ، وعلى الجمهور الغربى الذى يتلقى معلوماته من وسائل الإعلام الغربية التى تشيع هذه الآراء الخاطئة وتروِّج لها فى الغرب . بل والأخطر من ذلك أنها تؤثر على السياسات والخطط السياسية والاستراتيجية للغرب تجاه العالم الإسلامى . وتضع الشعوب الإسلامية والغربية فى مواجهة حضارية هم فى غنى عنها بدلاً من التقريب حضاريًا بينهم وإشاعة روح السلام والأمن والتعايش بين المسلمين والغربيين .

لقد أثرت نظرية صدام الحضارات لهنتنجتون وغيره تأثيراً سلبيًا على العلاقات الإسلامية الغربية فهى ، فضلاً عن تضييعها للجهود المبذولة على طريق الحوار الحضارى بين المسلمين والغرب ... ، تؤثر بشكل سلبى على السياسات الغربية تجاه العالم الإسلامى .

استراتيجية هنتنجتون لمواجهة الحضارات الإسلامية والآسيوية

لقد طرح هنتنجتون مجموعة من الإجراءات التى يجب أن يأخذ بها الغرب لكى يحافظ على الحضارة الغربية وتماسكها فى مواجهة الحضارات الإسلامية والآسيوية . وهى أشبه بحرب معلنة يريد هنتنجتون أن يتولاها الغرب للحفاظ على هويته . وتتكون هذه الاستراتيجية من :

١ - مواجهة مشاكل التفسخ الأخلاقى للحضارة الغربية وانهيار القيم العائلية والاجتماعية فى الغرب .

٢ - ترسيخ وحدة الهوية الثقافية للولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها هوية أوربية خالصة، والوقوف ضد تيار التعددية الثقافية للمجموعات الإثنية داخل الولايات المتحدة باعتبارها مهدداً لوحدتها السياسية والثقافية .

٣ - التوجه نحو الاندماج السياسى والثقافى والاقتصادى والعسكرى بين أوربا والولايات المتحدة الأمريكية .

٤ - الحد من القوة العسكرية للدول الإسلامية والدول الكونفوشيوسية .

وكما هو واضح يرى هنتنجتون أن مواجهة الحضارات الأخرى يتم من خلال العلاج الأخلاقى للحضارة الغربية ، وتوحيد أوربا مع

الولايات المتحدة الأمريكية فى جبهة حضارية واحدة بعد توحيد الولايات المتحدة داخلياً من خلال رفض التعددية الثقافية والاثنية ومحاربتها . وأخيراً الحد من القوة العسكرية للعالم الإسلامى وللصين .

وتتضمن استراتيجية هنتنجتون القضاء على النمو الاقتصادى للدول الآسيوية ، وقد لاحظنا خلال العامين الأخيرين بداية هذه العملية الخاصة بضرب القوة الاقتصادية النامية للدول الآسيوية وعلى رأسها الدول الإسلامية منها مثل اندونيسيا والملايو . ويقول هنتنجتون " أن النمو الاقتصادى فى آسيا والثقة المتزايدة بالنفس فى المجتمعات الآسيوية تمزق السياسة العالمية بالأساليب التالية:

١ - يمكن النمو الاقتصادى الدول الآسيوية من توسيع قدراتها العسكرية، ويثير القلق بشأن العلاقات المستقبلية بين هذه الدول ، ويعجل النمو الاقتصادى باحتمالات الصراع وعدم الاستقرار فى المنطقة .

٢ - يزيد النمو الاقتصادى للدول الآسيوية من حدة الصراعات بين المجتمعات الآسيوية والغرب وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية . ويقوى من قدرة المجتمعات الآسيوية على تحقيق السيادة فى هذه الصراعات .

٣ - يؤدى النمو الاقتصادى إلى زيادة النفوذ الصينى ، ويزيد من احتمال تأكيد الصين لسيطرتها التقليدية فى شرق آسيا [١٠] .

٤ - يؤدى النمو الاقتصادى للدول الآسيوية إلى تغيير ميزان القوى الشامل بينها وبين الولايات المتحدة والغرب عمومًا .

٥ - يؤدى النمو الاقتصادى للعالم الإسلامى وللدول الآسيوية إلى زيادة ثقة هذه الدول فى صلاحية قيمها ومؤسساتها وتفوق ثقافتها على الثقافة الغربية والتشكيك فى صلاحية القيم الأمريكية والأوربية عالميًا . (١١) .

ولا تحتاج هذه الاستراتيجية التى وضعها هنتنجتون إلى تعليق فهى حرب حضارية معلنة على دول العالم الإسلامى والدول الآسيوية التى تسعى إلى تحقيق النمو الاقتصادى والالتزام بهويتها الثقافية ، والحد من تأثير الثقافة الغربية وهى حقوق أولية لهذه الدول يقرها القانون الدولى وتقرها الديموقراطية التى تتشدق بها أوربا والولايات المتحدة الأمريكية . ويلاحظ أيضًا الربط هنا بين النمو الاقتصادى والاستقلال الثقافى وأن هذا يؤدى بالضرورة ليس فقط إلى تغييرات فى الميزان الاقتصادى لهذه الدول فى علاقتها بأوربا وبالولايات المتحدة الأمريكية ولكن يؤدى أيضًا إلى تغييرات فى الميزان الثقافى بتأكيد الهوية الثقافية والاستقلال الثقافى عن الغرب ، وتحقيق التحديث بدون التغريب المصاحب له الأمر الذى يؤدى إلى اضمحلال دور الثقافة الغربية كثقافة كونية وظهور قوى ثقافية أخرى مهددة للهيمنة الثقافية الغربية .

ومن وجهة نظرنا بعد عرض هذه الاستراتيجية الحضارية لهنتنجتون أن صراع الحضارات الذى تثيره رؤية هنتنجتون ناجم من وجهة نظره عن رغبة إسلامية وآسيوية فى النمو الاقتصادى وما يتبعه من نمو ثقافى مضاد للثقافة الغربية . وهو لهذا يتهم الدول الإسلامية والآسيوية بسذاجة شديدة بأنها بسعيها إلى النمو الاقتصادى والثقافى إنما هى تدخل فى حرب حضارات مع الحضارة الغربية . ولكى لاتنشب هذه الحرب الحضارية لابد من القضاء على النمو الاقتصادى المسبب للنمو الثقافى وحتى تبقى أوربا منتصرة دائمًا بحضارتها ، إنه الوجه الاستعمارى السافر لهنتنجتون وحضارته .

يعتقد هنتنجتون فى أزلية الصراع بين الإسلام والغرب وبين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية . وفى هذا يقول فى لغة مباشرة وصريحة : " المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام ، فهو حضارة مختلفة ، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضآلة قوته . المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات المركزية الأمريكية ولا وزارة الدفاع . المشكلة هى الغرب حضارة مختلفة شعبها مقتنع بعالمية ثقافته ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متدهورة فإنها تفرض عليه التزاما بنشر هذه الثقافة فى العالم . هذه هى المكونات الأساسية التى تغذى الصراع بين الإسلام والغرب " (١٢) .

ويؤكد هنتنجتون أن هناك حالة شبه حرب حضارية بين الإسلام والغرب منذ حدوث الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩ (ص٣٤٩) وهى شبه حرب لأن عدداً من الدول الإسلامية (إيران والسودان والعراق وليبيا وسوريا) يحاربون الولايات المتحدة وبريطانيا بالإضافة إلى عداوتهم وحربهم ضد إسرائيل واليهود . وهى شبه حرب لأنها تتم بوسائل محدودة منها الإرهاب فى جانب والقوة الجوية والعمل السرى والعقوبات الاقتصادية فى الجانب الآخر . وهى شبه حرب لأن العنف فيها متقطع وليس مستمراً فهناك أفعال وردود أفعال (ص ٣٥٠) . وتضع أمريكا هذه الدول خارج المجتمع الحضارى العالمى وأنها تشن حرب إرهاب مدنى ضد الولايات المتحدة الأمريكية (ص٣٥١) وقد شاركت الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٧ عملية فى الشرق الأوسط كانت كلها موجهة ضد مسلمين ولم تحدث عمليات أمريكية ضد شعب آخر من حضارة أخرى (كتب هنتنجتون ووضع نظريته قبل حرب أمريكا والناتو ضد الصرب) .

المخيف فى هذا الفهم لدى هنتنجتون اعتباره الصراع الحضارى بين الغرب والإسلام صراعًا أزليًا ومستمراً ولن يتوقف . ولقد عبّر تعبيراً مباشراً عن موقف الغرب من الإسلام وموقف الإسلام من الغرب بحيث لايمكن القول بأن هناك لبسًا فى كلامه .

وفى تحليلنا لهذا الرأى ونتائجه المريعة نقول إننا أمام حالة نفسية معقدة صاحبها مصاب بعقدة الكراهية والحقد والعداء تجاه

الإسلام والمسلمين . وهو يحاول أن ينشر هذه الحالة النفسية الهستيرية لدى الغرب يحذره من هذا العدو المتربص به وهو الإسلام .

إن هنتنجتون متشائم إلى أبعد حد ممكن فهو لايرى أمامه سوى الشر والخراب والدمار عندما يتحدث عن الإسلام والمسلمين ، ونجد حديثه أقل حدة وعنفًا وعداوة عندما يتحدث عن شعوب أخرى مناوئة للغرب ومعادية له مثل الصين واليابان . وهو يغذى هذه النزعة العدوانية ضد الإسلام من خلال استغلال عصور الصراع السياسى بين المسلمين والغرب ويتخذها دليلاً على وجود الصراع واستمراريته، إن تحليله لعلاقة الإسلام بالغرب تحليل عاطفى غير موضوعى وتسيطر عليه مشاعر الكراهية .

ويركز هنتنجتون على الاختلاف بين الإسلام وحضارته والغرب وحضارته كسبب رئيسى للصراع واستمراريته ويعتبر النزعة إلى عالمية الثقافة لدى المسلمين والغرب سببًا آخر من أسباب الصراع. ونخرج من هذه الأحكام بعدة نتائج أهمها :

١ - أن هنتنجتون لايؤمن بالتعددية الثقافية ولا بالهويات الثقافية المستقلة عن الهوية الثقافية الغربية ، ويعتبر الثقافة الإسلامية على وجه التحديد منافسة ومعادية للثقافة الغربية .

٢ - لايؤمن هنتنجتون بحق الاختلاف الثقافى ، ولايؤمن بوجود ثقافات كونية بخلاف الثقافة الغربية ولذلك فهو يرفض ادعاء

الحضارة الإسلامية بالعالمية ويعتبره سببًا للصراع مع الحضارة الغربية.

٣ - لايوجّه هنتنجتون اللوم إلى ثقافته أو يعتبرها هى سبب الصراع الذى يدّعيه ، ولكن يُفهم من كلامه أن أى حضارة تدعى العالمية فهى حضارة مضادة ومعادية للحضارة الغربية ويجب الوقوف فى وجهها ومحاربتها .

٤ - يفسر كل صراع مهما صغر بأنه دليل على استمرارية الصراع وأن الحرب حرب حضارية أزلية لاتنتهى إلا بنهاية التاريخ

٥ - بهذا يقضى هنتنجتون على كل الأمل فى التقريب بين الحضارتين ويتجاهل التقارب الحادث بينهما فى الماضى والحاضر .

٦ - يباعد بين الحضارتين الإسلامية والغربية ولايعترف بدرجة قرابة بينهما تسمح بتفادى الصراع الحضارى بينهما .

إنها صورة مظلمة متشائمة لاترى حلاً ولا علاجًا فى الحاضر والمستقبل ، وتحض على استمرارية الحرب الحضارية بدلاً من العمل على منعها . وهى صورة لاتنشأ إلا عن نفس مريضة ولايمكن مواجهتها إلا من خلال رؤى جديدة لنفوس غربية صحيحة محبة للسلام والاستقرار فى العالم .

لاشك فى أن صموئيل هنتنجتون يقدم تشخيصًا خاطئًا للوضع الحضارى وتأثيراته على السياسة الدولية . فهو يسىء فهم الحاضر عندما يعتبر خطوط الاحتكاك بين الحضارات هى مصدر الحرب . وهو يتوقع حدوث مأساة بسبب مايراه من صدام متوقع بين الحضارات .

ويقع هنتنجتون فى التبسيط المفرط للأمور ، ويقدم نظريته فى شكل بسيط يجعلها نظرية ضعيفة فى تفسير الأحداث والتغييرات التى يمر بها العالم وذلك من خلال التركيز على الثقافة " كعامل أحادى حتمى محدد للسياسات الدولية " ويصف أحد نقاد النظرية بأنها تمثل نوعًا من الخمول الفكرى الذى يتخفى وراء طروحات ثقافية تريد تحويل البشر إلى سجناء أبديين لثقافاتهم التى تحفزهم على الدخول فى حروب وعداوات فيما بينهم . والواقع أن الثقافة لايمكن أن تكون الفاعل الأساسى المتحكم فى سير العلاقات الدولية . فالسياسة الدولية نتاج تفاعل مستمر ومعقد وجدلى بين مؤثرات متعددة يتداخل فيها الثقافى والاقتصادى والسياسى والأيديولوجى بغيره من العوامل " (١٣).

إن المتعمق فى تاريخ الصراعات عبر التاريخ البشرى الحضارى يلاحظ أن الثقافة احتلت دائمًا المكان الأخير كعامل صدامى بين الشعوب بل أحيانًا نجد العكس وهو أن العامل الثقافى قد ينقلب إلى عامل توفيقى يخفف من حدة الصراع السياسى والاقتصادى

والعسكرى . والحقيقة أن معظم إمبراطوريات العالم القديم - فيما عدا إمبراطورية الاسكندر - لم تهتم بالثقافة كعامل من عوامل الحرب ، ولم تعتبر الغزو الثقافى أحد أهدافها ، ولم تحارب بسبب الاختلاف الحضارى إنما حاربت لأهداف سياسية اقتصادية فقط . ويعتبر الإسكندر الأكبر أول من جعل الغزو الثقافى من بين أهداف الغزو العسكرى فقد استطاع أن ينشر الثقافة الهللينستية بالقوة فى العالم القديم . وفى التاريخ الحديث اتجه الاستعمار الغربى إلى نشر الحضارة الغربية فى البلاد المستعمرة وكان هذا إحدى نتائج الغزو الاستعمارى فى البلاد المستعمرة ، ولكن لم يكن أحد أسبابه على الرغم من أن الفلسفة الاستعمارية الغربية تحدثت عن الرسالة الحضارية للاستعمار وعبء الرجل الأبيض . ولكن لم تكن الثقافة هى سبب الاستعمار ولم يكن الشعور بالتهديد الحضارى أحد الأسباب الدافعة إلى الاستعمار .

ويلاحظ أن بعض الدول الغازية قديمًا وفى العصرين الوسيط والحديث انهزمت حضاريًا بعد أن انتصرت سياسيًا وعسكريًا وحققت المكاسب الاقتصادية الناجمة عن التوسع . وكانت الهزيمة الثقافية نتيجة لتدهور الوضع الحضارى للدولة الغازية فى مقابل القوة الحضارية للدولة المغزوة . وبعد انحسار الصراع السياسى العسكرى يجد المستعمر نفسه فى وضع حضارى أدنى ، ويصاب بالانبهار الحضارى وربما يستجيب لحضارة المغلوب ويتفاعل

معـها ويتـأثر بهـا . وقـد كـان هذا وضـع معظم أشكال الغـزو التى قامت بها جماعات بدوية إلى مناطق الوديان الحضارية فى التاريخ القديم . وفـى العصر الوسيط لدينا مثـالان واضحان على هذا وهما الحروب الصليبيـة التى وضعت الأوربى وجهًا لوجه أمام الحضارة الإسلامية المزدهرة وانتهى أمرها بالتفاعل معها والتأثر بها والقيام بنقل معارفها إلى لغاته الأوربية . فقد انتصر الصليبيون سياسيًا وعسكريًا وانهزموا ثقافيًا . ونفس الوضع مع حروب المغول الذين غزوا العالم الإسلامى وأسقطوا الخلافة العباسية ثم انهزموا ثقافيًا إلى حد التخلى عن ثقافتهم الوثنية، والدخول فى الإسلام ، وتبنى الثقافة الإسلاميـة . من هذه الأمثلة يتضح أن الثقافة لم تكن سببًا للصراعات والحروب بل كانت دائمًا أحد عوامل انحسار القوة السياسية والعسكرية وأحد أسباب الالتقاء والتوافق بعد الصدام السياسى والعسكرى .

لقد غالى هنتنجتون فى النظر إلى الثقافة كعامل حتمى لوقوع الصراعات وفى تشكيل السيـاسة الدوليـة والتحكم فى سيـر العلاقات بين الدول ، وقد تجاهل هنتنجتـون حقيقة أن العـالم يقترب من بعضه ثقافيًا ، ويسعى إلى دعم العلاقات الثقافية وبخاصة بعد أن أنشأ العديد من المنظمات الثقافية الدولية التابعة للأمم المتحدة أو النابعة من تنظيمات إقليميـة ودولية هدفها التعاون الثقافى ، وتقوية التبادل الثقافى ، وزيادة حجم الالتقاء

الحضارى بين الشعوب . ولقد أتاحت وسائل الإعلام المتقدمة فرص التقاء الثقافات والتعرف عليها والاحتكاك بالشعوب الأخرى على المستوى الثقافى ، كما فتح باب الهجرة مجال الاندماج فى الثقافات الأخرى ، والتعايش معها رغم الاختلاف الثقافى . ولذلك تأتى نظرية صدام الحضارات ضد هذا التوجه العالمى إلى الالتقاء الثقافى والحوار بين الثقافات مع الحرص على التعددية الثقافية والاختلاف الثقافى لما فى ذلك من إثراء للثقافة الإنسانية وتنوعها ، وحفظ للتراث الثقافى الإنسانى من الضياع . فالمجهود الدولى يسعى إلى التقارب بين الحضارات ، والظروف الدولية نفسها تساعد على تحقيق هذا التقارب .

موقف الإسلام من حوار الحضارات

اشتملت نظرية " صدام الحضارات " التى طورها هنتنجتون على صورة مشوهة وغير حقيقية للإسلام وحضارته وعلاقته بالغرب وبالحضارة الغربية . وقد علق أحد النقاد المسلمين على النظرية وموقفها من الإسلام بقوله : " لايمكن للمرء أن يفهم صدور مجموعة من الأحكام غير الموضوعية بخصوص الإسلام من قبل مفكر أكاديمى كبير بحجم صموئيل هنتنجتون حيث تعامل مع الإسلام كموضوع للإثارة الإعلامية من خلال التحفيز على التخويف من المسلمين وكراهيتهم عبر تقديم صورة سلبية عن الإسلام باعتباره دينًا دمويًا عنيفًا يشجع على الإرهاب وعدم التعايش والاندماج مع الشعوب الأخرى . وهذه مغالطات تنم عن جهل واضح بالإسلام ومبادئه ، وهو يساهم بذلك فى موجة الإسلاموفوبيا التى تجتاح العديد من الأوساط الفكرية ، والسياسية ، والاستراتيجية فى الغرب"(١٤).

والحقيقة أن المسألة هنا لا تنم عن جهل بالإسلام ومبادئه ولكنها سياسة مقصودة تهدف إلى إشاعة الرعب من الإسلام فى الغرب وتقديمه فى صورة الدين المهدد للمسيحية واليهودية ، وفى صورة الحضارة المهددة للحضارة الغربية . وهى استمرار لنفس

الصورة الاستشراقية القديمة التى قدمت الإسلام والمسلمين فى صورة همجية بربرية تزرع الخوف والفزع فى نفوس الجمهور الغربى، وتحفزه على مواجهة الإسلام كعدو لليهودية والمسيحية وللحضارة الغربية . وقد استغل مروّجو هذه الفرية سقوط الشيوعية لكى يصفوا الإسلام بأنه العدو الوحيد الذى يجب أن يتوجه إليه اهتمام الغرب ، والمسألة ليست مسألة جهل بالإسلام ، وبالمنجز الإسلامى فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، ولا بالفضل الإسلامى عى الحضارة الغربية ذاتها . فالمعرفة بالإسلام متاحة بشكل أفضل مما قبل والاتصال بالمسلمين أصبح أمراً ميسوراً ، وواضع هذه النظرية عالم ومفكر أكاديمى لن يعدم الوسيلة للحصول على المعلومات السليمة عن الإسلام وحضارته .

المسألة فى الحقيقة مسألة سياسية مرتبطة باستراتيجية العالم الغربى تجاه الإسلام وشعوبه . فالمستشرقون من نوعية صموئيل هنتنجتون يشاركون فى صنع القرار السياسى الغربى بشأن الشئون العربية والإسلامية ، ويقدمون خبراتهم ورؤاهم للدوائر السياسية الغربية بشأن القضايا العربية والإسلامية . ومن المعروف صلتهم بوزارات الخارجية الغربية وعملهم كخبراء لشئون العالم العربى والإسلامى فى هذه الدوائر السياسية .

وتأتى نظرية " صدام الحضارات " لكى تقدم طرحًا سياسيًا واستراتيجيًا غربيًا يتفق مع المعطيات التاريخية والسياسية

والاستراتيجية للعالم الغربى بعد سقوط الشيوعية ، وبعد التخلص من الازدواجية الأيديولوجية فى الغرب بين الشيوعية والرأسمالية ، ومحاولة صنع عدو من خارج النسق الحضارى الغربى . ولذلك يأخذ العالم الإسلامى مكان السبق فى نظرية صدام الحضارات حيث تبدو حضارات الشرق الأخرى أقل خطورة على المستوى الثقافى ، وإن كانت أكثر تهديداً عى المستوى السياسى . وتعتبر هذه النظرية الإسلام العدو الثقافى القريب جغرافيًا فهو يتميز بثقافته المنافسة للثقافة الغربية والأكثر نقداً لها . كما يعطى الحوار الجغرافى بعداً أقوى لاعتبار الإسلام عدواً . فأرض الإسلام تجاور أرض المسيحية وتقع على حدود الغرب أو تبدأ من حيث ينتهى الغرب .

ولذلك يشكك بعض المفكرين المسلمين فى حقيقة الدعوة إلى الحوار بين الحضارات على الرغم من عدم معارضة الإسلام لهذه الدعوة ، وترحيبه الشديد بها ، واتفاقها مع الموقف الإسلامى العام . ومصدر الشك يبدو فى مصداقية الدعوة الغربية إلى حوار الحضارات لأنها لا تبدو فى صورة حوار فكرى حضارى بل فى شكل تفاوض سياسى تدعمه القوة وتتحكم فيه وليس الحقيقة . وفى هذا الإطار تبدو نظرية صراع الحضارات وكأنها الممثل الحقيقى للتوجه الغربى . وهو توجه سياسى يهدف إلى استغلال الحضارة لتحقيق أهداف سياسية وتطوير بعد ثقافى للصراع بين الغرب والإسلام ، وتتويجه من خلال اعتبار الثقافة العامل

الأساسى المتحكم فى مسيرة العلاقات الدولية[١٥] . وتبرز هنا نظرية صدام الحضارات فى كونها أظهرت أهمية الأبعاد الثقافية فى العلاقات الدولية وأن الصراع المستقبلى سيأخذ الشكل الحضارى بعد أن سيطرت عليه فى الماضى الأشكال السياسية والأيديولوجية .

وللرد على نظرية صدام الحضارات لابد من توضيح أمرين : الأول خطأ النظرية فيما يتعلق بتحليلها لطبيعة الإسلام وحضارته ، والنظر إلى الإسلام باعتباره دينًا صداميًا يحض على العنف والإرهاب ، وبالتالى فهو يحتل مكانة مهمة فى نظرية هنتنجتون إلى الحد الذى يحس معه المرء بأن هذه النظرية وُضعت خصيصًا لمواجهة الإسلام والمسلمين ، ولكنها صنعت فى شكل نظرية عامة بحيث لاتبدو وكأنها موضوعة ضد الإسلام وحضارته . أما الجزء الثانى من الرد على هذه النظرية فهو يختص بتوضيح موقف الإسلام من حوار الحضارات ، والمبادىء التى يستند إليها هذا الموقف ، وهو يمثل فى نفس الوقت مستوى آخر من الرد على نظرية صدام الحضارات ، وذلك لأن الموقف الإسلامى الإيجابى من حوار الحضارات ينفى كون الإسلام دينًا صداميًا وهنا نجد أن خطأ هنتنجتون فى نظريته خطأ مركب . فهو يتجاهل أو يجهل طبيعة الإسلام وحضارته ويحكم على الإسلام بالعدوانية والعنف، ثم يجعله فى مكان القلب أو المركز فى نظرية صدام الحضارات ، وهو

دين يقول بالتقاء الحضارات ويعمل على تقارب الشعوب وتوافقها.

وفيما يتعلق بالرؤية الخاطئة للإسلام وحضارته فقد عبر عنها هنتنجتون تعبيرات مباشرة خلط فيها خلطًا مباشراً ومقصوداً بين الدين والواقع السياسى للمسلمين فى العصر الحالى وفسر ماتوصل إليه من نتائج سلبية برد كل شىء سلبى إلى الإسلام مستعينًا بأحداث من التاريخ الماضى يؤكد بها أحداث الحاضر لكى يخرج بحكم تاريخى واحد على الإسلام وهو أنه دين العنف والإرهاب . وقد توسع فى إعطاء الإحصائيات والرسوم البيانية التى أعطت صبغة علمية لنظريته للحصول على مزيد من الإقناع والاقتناع بكون الإسلام دين تصادم وعنف ، وليس دين حوار وتسامح .

ولكى نؤكد على هذا التوجه المبدئى لهنتنجتون ضد الإسلام وحضارته نقتبس من عمله بعض الاقتباسات القصيرة السريعة ففى ص ٤٢٠ يقول : " الميل الإسلامى إلى القتال والعنف من حقائق أواخر القرن العشرين التى لايستطيع أن ينكرها المسلمون أو غير المسلمين " . وفى نفس الصفحة يسأل : " من المسئول عن زيادة عدد حروب خطوط التقسيم الحضارى وعن الدور المركزى للمسلمين فى تلك الصراعات فى أواخر القرن العشرين ؟ " ويربط الحاضر بالماضى فيقول : " هذه الحروب لها جذورها العميقة فى

التاريخ " (ص ٤٢٠) ، ويكرر مؤكداً : " لماذا والقرن العشرون يوشك على الانتهاء نجد أن المسلمين هم الأكثر تورطًا فى مزيد من العنف بين الجماعات من شعوب الحضارات الأخرى " (ص ٤٢٦) .

ويفسر هنتنجتون هذا الميل الإسلامى إلى العنف بنفس الردود الاستشراقية التقليدية وهى أن "الإسلام كان دينًا للسيف منذ البداية ، وأنه يمجد الفضائل القتالية . هذه النشأة العنيفة مطبوعة فى أساس الإسلام (ص ٤٢٦ - ٤٢٧) وأن محمداً (ﷺ) كان مقاتلاً عنيفًا وقائداً عسكريًا ماهراً وقد علق على هذا بقوله بين قوسين : لا أحد يستطيع أن يقول ذلك عن المسيح أو عن بوذا (ص٤٢٧) . ويضيف إلى الأسباب السابقة أن القرآن لايحرم العنف (ص٤٢٧) وأن مفهوم اللاعنف غائب عن الفكر والممارسة الإسلاميين (ص٤٢٧) ويقول أيضًا : إن انتشار الإسلام وضع المسلمين فى احتكاك (صدام) مباشر مع شعوب مختلفة . ولاينسى أن يضيف أن " رعاية الغرب ، فى قمة قوته فى مواجهة الإسلام ، لوطن يهودى فى الشرق الأوسط وضعت الأساس لعداء عربى إسرائيلى مستمر " (ص٤٢٨) مع ملاحظة عبارة " رعاية الغرب " ودلالتها .

ويتمادى هنتنجتون فى توضيح موقفه العدائى من الإسلام فيقول : " الإسلام عقيدة أكثر استبدادية حتى من المسيحية .

الإسلام يمزج بين الدين والسياسة ويضع حداً فاصلاً بين أولئك الذين فى دار السلام وأولئك الذين فى دار الحرب" (ص٤٢٨) ويقول أيضًا " النزعة القتالية وعدم القابلية لفكرة القرب من جماعات غير إسلامية ... كل ذلك ملامح مستمرة للإسلام يمكن أن تفسر الميل الإسلامى للصراع عبر التاريخ " .

وبعد هذا الفيضان من الشبهات والأخطاء التى يفسر بها هنتنجتون نظريته ورؤيته للإسلام والمسلمين يضيف أسبابًا أخرى يصفها بأنها محدودة وزائلة مع أنها فى نظر المسلمين هى الأسباب الحقيقية للصراع الذى نشأ مع الغرب فى القرون الأخيرة ، وهو يقدم هذه الأسباب على أنها الأسباب التى يقدمها المسلمون وهى : أن الاستعمار الغربى أخضع المجتمعات الإسلامية وأضعف المسلمين وحولهم إلى ضحايا لغير المسلمين . والسبب الثانى غياب الدولة المركز فى الإسلام . والسبب الثالث أن هناك قوة مركزية تآمرية موجهة ضد الإسلام .

ويسخر هنتنجتون من هذه الأسباب الإسلامية ويعتبرها أسبابًا محدودة وزائلة على الرغم من أنها الأسباب الحقيقية للصراع بين المسلمين والغرب .

بعد إعطاء هذا العرض السريع لأخطاء هنتنجتون والشبهات التقليدية وغير التقليدية التى أثارها ضد الإسلام وحضارته نوضح الصورة الحقيقية للإسلام وحضارته والتى تجاهلها هنتنجتون تمامًا

لكى تنجح نظريته فالنظرية مبنية على أساس من تقديم الإسلام فى غير صورته الحقيقية . ولو قُدم الإسلام فى صورته الحقيقية لسقطت نظرية صدام الحضارات سقوطًا مدويًا . فتشويه الإسلام مقصود حتى تنجح نظرية صدام الحضارات فى جانبها النظرى .

والإسلام الذى يتجاهله هنتنجتون (ولا أقول يجهله) دين عالمى رسالته رسالة عالمية رافضة للأيديولوجيات العنصرية والقومية والإقليمية كما أن رسالته رسالة إنسانية هدفها توحيد البشرية ، وتحقيق التقارب بين الشعوب ، وحماية الإنسان وتكريمه ، وضمان حقوقه ، بصرف النظر عن دينه أو لونه أو عرقه. ولايوجد دين آخر ضمن حقوق أهل الأديان الأخرى ورعاها رعاية شرعية سوى الإسلام. وقد تطور عن هذه المبادىء موقف إيجابى من الآخر يسعى إلى الاتصال بالآخر وبناء علاقة سليمة معه يتم فيها الاعتراف المتبادل وضمان حقوق الآخر فى نفس الوقت ، وقد قامت علاقة الإسلام بأقلياته الدينية على أساس من الاعتراف بحقوق هذه الأقليات وحمايتها وأولها حق الاختلاف فى الاعتقاد.

هذه المواقف المبدئية الإسلامية أدت بالضرورة إلى أن يكون الإسلام دائمًا وأبداً مع الاتصال والحوار مع الأديان والحضارات الأخرى . وهو الدين الوحيد فى تاريخ البشرية الذى حقق أكبر قدر من الاتصال بالأديان والحضارات الأخرى ، وتفاعل معها ، وتحاور

مع أهلها على أساس من التسامح الدينى ، والإيمان بالتعددية الدينية والثقافية . وكما يقول الدكتور هشام نشابة : " إن حضارة الإسلام فى جوهرها حضارة حوار لاحضارة صراع ". ولذلك يرى د. طه جابر علوانى " أن حوار الحضارات لكى يكتب له النجاح لابد أن تتوفر فيه شروط أساسية هى فى الحقيقة شروط إسلامية معبرة عن جوهر الإسلام وحضارته . وهذه الشروط هى :

١ - الاعتراف بأن الاختلاف ضرورة وسنة من سنن الوجود ، وأن الاختلاف والتنوع غايته التعارف والتعايش ، وانعكس هذا المعنى فى الآية القرآنية { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم } .

٢ - الحق فى الاختيار الحضارى بعيداً عن الإكراه سواء بالجبر والقهر أو بالغزو الفكرى وتزييف الوعى .

٣ - إعلان التعايش والتعاون بدل الصراع والنظر إلى الآخر بشكل يضمن حريته وكرامته .

٤ - أن رسالة الإسلام عالمية متحررة من العنصرية والقومية والإقليمية وأن الإسلام لم يعرف فى تاريخه مفهوم التصادم الحضارى الشامل (١٦) .

ويؤكد الشيخ محمد الغزالى أن اختلاف البشر جزء من تاريخ الحياة على اختلاف الليل والنهار . ويستشهد بالآية القرآنية :

{ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم } فوجود الرأى المخالف حقيقة واقعية لامجال للتنصل منها [١٧] .

ويصف الدكتور محمد فاروق النبهان الحضارة الإسلامية بأنها لم تكن فى يوم من الأيام حضارة عنصرية أو قومية . وأنها كانت حضارة شمولية ساهمت شعوب كثيرة فى صياغة معالمها وأفكارها[١٨]. ويصف الدكتور النبهان التفاعل الحضارى بأنه أمر طبيعى يعتمد على الاستعداد النفسى وقدرة الحضارة الأقوى على العطاء والاعتراف بأثر التعددية الحضارية فى نمو قيم حضارية رفيعة [١٩] ويؤكد أن البحث عن الهوية الحضارية لايعنى المواجهة أو الصراع مع الآخر . فمن حق أى حضارة أن تدافع عن هويتها التى تميزها . ويعلل مظاهر المواجهة العالمية بين الحضارتين الإسلامية والغربية بأن سببها يكمن فى " إصرار الحضارة الغربية على ممارسة الهيمنة والسيطرة فى الوقت الذى تسعى فيه الحضارة الإسلامية لاثبات هويتها والحفاظ على خصوصيتها"[٢٠].

ويرى الدكتور النبهان أن التعايش بين الحضارتين الإسلامية والغربية ممكن فى ظل " صيغة إنسانية تنطلق من منطلق الإيمان بالله ، والإيمان بقيم الفضيلة التى دعت إليها الأديان السماوية لتحرير عقيدة الإنسان وانقاذه من المظالم والانحرافات " ويرى

أيضًا أن الحوار مع الحضارة الغربية يتحقق من خلال إقامة علاقة تكامل وتعايش وتساكن على أساس الاعتراف بخصوصيات كل حضارة " (٢١) .

وهكذا نرى أن كل المفكرين المسلمين يتفقون على أن الحوار هدف إسلامى حضارى أصيل ينبع من طبيعة الدين الإسلامى وحضارته ، وأن الصراع الظاهر تفرضه ظروف خارجة على طبيعة الإسلام وحضارته . إن الصراع مفروض بالقوة على المسلمين المواجهين بغزو حضارى غربى مهدد للهُوية الإسلامية . إن أطماع الغرب السيادية والرغبة فى طمس الهويات الحضارية للشعوب الأخرى هى السبب الأول والأخير لما يسميه هنتنجتون " صراع الحضارات " .

وانطلاقًا من هذا الإيمان الراسخ بأن جوهر الإسلام وحضارته يدفع المسلم دفعًا إلى الاتصال بالآخر والتعايش معه على أسس دينية تضمن حرية الاعتقاد والعبادة والتعددية الثقافية ناقش بعض المفكرين المسلمين قضية حوار الحضارات بشكل مستقل أحيانًا ، أو فى ارتباطها بنظرية صدام الحضارات التى طورها صموئيل هنتنجتون .

ويعتقد المفكر المغربى عبد الهادى بوطالب أن الذى نشاهده على الساحة الدولية فى الوقت الراهن ليس صراعًا بين الحضارات أو الأديان رغم أن كثيراً من المظاهر قد تشير إلى ذلك . إن

مايميز المرحلة التاريخية الحالية هو صراع أو مواجهة بين الفكر الروحي والفكر المادى . وأن الغرب يشترك مع الشرق فى المواجهة الروحية المادية . إن معضلات العصر تتلخص فى ظاهرة الافتقار إلى البعد الروحي وتفاحش الثورة الانتاجية وظاهرة الحرمان الاجتماعى . [٢٢] . والإسلام مطالب بمعالجة هذه الظواهر وتقديم الحلول لها كمشروع مستقبلى يعزز الهوية الثقافية الإسلامية ويعدها فى المستقبل للتفاعل مع الآخرين ، نأخذ ونعطى ، ونؤثر ونتأثر متكيفين مع العصر بدون مركب نقص " [٢٣]. وهذا إذن موقف ينكر وجود صراع حضارات أو أديان ، ويعترف بوجود صراع روحى مادى معبر عن أزمة عالمية تتطلب فى علاجها مشاركة إسلامية .

ويشرح المفكر الماليزى سيد العطاس المشكلة فى مصطلحات قريبة من لغة المفكر عبد الهادى بوطالب ، فهو يقابل بين القيم الإسلامية والقيم العلمانية ، ويعتبر الأخيرة مسئولة عن إقصاء النظرة الروحية الشاملة والحقيقية ومايتبع ذلك من انتشار القيم المادية المتغيرة ، وفى الوقت الذى يرحب فيه بالعلم ونتائجه يطالب بعدم التفرقة بين الجوانب العلمية والإنسانية والدينية فى المعرفة لأن هذه التفرقة هى مبعث الاضطراب الفكرى الذى يعيشه المسلمون . ويرى أن الحوار مع الحضارة الغربية وقيمها يتطلب التمسك بوحدة المعرفة وعدم فصل العلم عن الدين . [٢٤] .

ويرى المفكر على أوزاك أن التفاعل بين الحضارات طبيعى والتأثير والتأثر سنة من سنن الحياة وعليه فلابد من " التفاعل والتعاون بين الأشخاص والمجتمعات والشعوب والأقوام وبخاصة فى عصرنا الذى أصبح قرية صغيرة بوسائل النقل والإعلام " (٢٥).

وبنفس هذه اللغة تقريبًا يحلل المفكر الباكستانى خورشيد أحمد العلاقة مع الغرب وذلك من خلال المقارنة بين مفهومى الإسلام والغرب ، واعتبر الإسلام يمثل ظاهرة أخلاقية عقائدية مثالية وثقافية بينما يمثل الغرب العلمانية والفردية ، والتحررية السياسية والقومية . أما الجدل الحالى حول علاقة الإسلام بالغرب فله خصوصيته لأنه يأتى " ضمن سياق التطورات الفكرية والسياسية التى حدثت بعد سقوط الاتحاد السوفيتيى سياسيًا ، وتراجع الشيوعية كعقيدة ونمط اقتصادى واجتماعى " الأمر الذى جعل بعض الاستراتيجيين الغربيين ينظرون إلى الإسلام وعالمه السياسى كعدو جديد ومرتقب وبدأ لذلك الحديث عن صدام الحضارات .

ويؤكد خورشيد أحمد أن الإسلام يؤمن بالتعددية وينتصر للتعايش بين الشعوب والحضارات وإذن لامجال للصدام الحضارى. وهو يربط التعايش وعدم وقوع الصدام بإقلاع الدول الغربية عن التهديد العسكرى لباقى المجالات الجغرافية والحضارية الأخرى . ويؤكد أيضًا : " أن هناك حاجة ملحة لحوار

أكثر فعالية ومعنى وشمولية بين العالم الإسلامى والعالم الغربى للتوصل إلى فهم أفضل لتطلعات وأهداف بعضهما البعض ، وتمهيد السبيل نحو سعى مشترك وراء إجماع على النموذج الجديد. إن رؤية عالم تعددى أصيل وحقيقى يضمن علاقة سلمية ليس بين الإسلام والعالم الغربى وحسب ، بل بين جميع الأديان والثقافات فى هذا العالم " (٢٦) .

اتفقت هذه الآراء الإسلامية لمفكرين من بلاد إسلامية مختلفة على أن الموقف الإسلامى العام موقف يطالب بالحوار بين الحضارات ويؤيده مع وضع شروط لنجاحه فى العالم المعاصر من أهمها أن تتخلى الحضارات ، وبخاصة الحضارة الغربية ، عن نزعة الاستعلاء والرغبة فى السيادة والهيمنة لأن هذا هو الذى يُولِّد الصراع بين الحضارات وذلك حين يشعر أهل الحضارات المختلفة بأن هويتهم الثقافية مهددة بالضياع وعندئذ يهبون للدفاع عن هذه الهوية ، فيبدو الأمر وكأنه صراع مع أنه دفاع واجب عن الهوية الثقافية .

هناك اتفاق بين معظم المفكرين المسلمين المهتمين بالحوار بين الحضارات على أن الحضارة الغربية هى المسئولة عن إثارة الصراع بين الحضارات على المستوى النظرى والتطبيقى . وفى مقدمة هؤلاء يأتى رأى الشيخ محمد الغزالى الذى أشار إلى حقيقة تاريخية تقول بأن " الغرب كان دائمًا السبّاق إلى إثارة العداء

وممارسته وتعميقه تجاه المسلمين خاصة " (٢٧) والحضارة الغربية مهتمة بالقضاء على كل القيم التى تؤمن بها وتمارسها على نطاق واسع ضمن جغرافيتها التاريخية والسياسية . فالديموقراطية مباحة فى الغرب مرفوضة فى العالم الإسلامى . ولذلك من الصعب الحديث عن حوار حضارى فى الوقت الذى يرزح فيه واقع الأمة الإسلامية تحت نير التبعية والاستعمار غير المباشر وانتشار الفساد . ومعنى كلام الشيخ الغزالى أنه لاتوجد إمكانية للحوار الحضارى مع الغرب فى ظل التبعية والخضوع للغرب .

ويشك المفكر الألمانى المسلم مراد هوفمان فى وجود حوار حضارى بين الحضارتين الغربية والإسلامية وذلك لأن سياسة الهيمنة الغربية تمنع حدوث مثل هذا الحوار . وربط هذا بفلسفة التاريخ الغربى التى تشكل الخلفية الفكرية لسياسة السيطرة والهيمنة المطلقة على العالم ولذلك فهو يسأل أى حوار تحكمه خلفية الهيمنة ؟ ويرى مراد هوفمان أن وضع العالم الإسلامى الحالى لايسمح بالدخول كطرف قوى فى الحوار المطلوب فالعالم الإسلامى ضعيف وممزق إلى عدة دول متخلفة فى أوضاعها العلمية والاقتصادية . والحوار الحقيقى يحتاج إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام العقل المسلم حتى يشارك بفعالية فى حل القضايا العالمية ويصبح قادراً عى التحاور الثقافى (٢٨) .

ويرى الدكتور محمد فاروق النبهان أن الحوار مع الحضارة الغربية مطلوب وضرورى ولكن فى ظل صيغة إنسانية إيمانية . ويقول بأن الحضارة الغربية ليست مرفوضة رفضًا مطلقًا من المسلمين الذين يرفضون الصيغة الغربية التى تفرض على الشعوب الإسلامية كاختيار حتمى . ويرى أن التفاعل الحضارى مع الغرب أمر طبيعى ولكن بعيداً عن المواجهة الثقافية وبعيداً عن إصرار الحضارة الغربية على ممارسة الهيمنة والسيطرة .

أما المفكر المسلم البوسنوى الدكتور اسماعيل باليتش فيرى أن المسيحية الأرثوذكسية فى الغرب تقف حائلاً دون اتصال المسلمين بالمسيحيين ويضرب مثالاً على ذلك بالكنيسة الصربية الأرثوذكسية التى امتنعت عن المشاركة فى الحوار والمبادرات الثقافية والدينية المشتركة بين الكاثوليك والمسلمين . وتقف المسيحية الأرثوذكسية فى هذه المنطقة عائقًا أمام اندماج المسلمين داخل المجتمعات الأوربية . وهى حسب رأيه ، تعمق الصراع وتغذّيه ، والأمل فى القوى السلمية داخل هذه الكنيسة لتحقيق حوار جاد ونافع للطرفين معًا المسلمين والمسيحيين .

ويعطى الدكتور عمر جاه مثالاً تطبيقيًا آخر على تعميق الصراع وتغذيته فى إطار العمل التبشيرى المسيحى فى إفريقيا . فهو يلاحظ أن الكنيسة الغربية مازالت تعيش ضمن إطار الفكر والوضع

الاستعمارى القديم فى إفريقيا . فهى تحتكر جميع أنشطة الدعوة وتحرم المسلمين منها . وهى فى إطار الاستراتيجية الغربية تقوم بدور الشرطة لحماية الثقافة الغربية ومنع الثقافة الإسلامية . وهى تملك أجهزة السيطرة الاقتصادية والعسكرية .

ويرى الدكتور عمر جاه أن القضية قضية صراع مصلحى دائم لامجال للتعايش أو الحوار فيه وهذا بخلاف النظرة الإسلامية التى تؤمن بالحوار وتدعو إليه (٢٩) .

ويعطى المفكر المسلم الصينى نشووى ليه مثالاً تطبيقيًا آخر يثبت به عدم صحة نظرية صدام الضحارات على مستوى علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارة الصينية الكونفوشيوسية . فهو يقول أن هناك نقاط اتفاق مشتركة بين الحضارتين أدت إلى عدم حدوث صدام بينهما . فالحضارتان تشجعان السلام والعدل ، والمساواة والحب ، وطلب العلم والتسامح ، ويؤكد أن الواقع المتميز للإسلام فى الصين يخالف نظرية هنتنجتون الخاصة بصدام الحضارات . وينقد هذه النظرية بقوله إنها لاتخلو من التركيز المجحف عى الجانب السلبى للعلاقات الحضارية (٣٠) .

وقد انتهى معظم المهتمين بالحوار بين الحضارات من العلماء المسلمين إلى أن الحضارة الغربية مازالت السباقة إلى التحرش بباقى الحضارات والوجودات الثقافية والاجتماعية المخالفة لها ،

وعلى رأسها الحضارة الإسلامية ، ولو تخلت الحضارة الغربية عن هذه الصفة لأمكن الدخول فى حوار حقيقى يعطى للتجمعات الحضارية المختلفة الحق فى الوجود والبقاء والحفاظ على الهُويات الدينية والثقافية . إن تفجير الصراع بين الحضارات ستكون نتائجه ضارة بالوجود الحضارى الإنسانى .

نظرية صدام الحضارات
وتسييس القيم الحضارية

لعل من أخطر أبعاد نظرية صدام الحضارات عملية تسييس القيم الحضارية والتلاعب بالبعد الثقافى فى حياة الشعوب وإخضاعه للسياسة ومصالحها . والملفت للانتباه أن كتاب " صدام الحضارات " الذى ألفه هنتنجتون ليس كتابًا فى الحضارة والحضارات ولكنه كتاب فى السياسة الدولية. ومعنى هذا أن الحضارة - أصبحت أو ستصبح - من وجهة نظر هنتنجتون موضوعًا للسياسة، فالحضارات ستكون المصدر الأساسى للنزاعات الدولية فى العالم الحديد . والنزاعات الأساسية فى السياسة العالمية ستحدث بين أمم وشعوب لها حضارات مختلفة ، وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية فالخطوط الفاصلة بين الحضارات هى خطوط المعارك فى المستقبل . ويمثل النزاع بين الحضارات المرحلة الأخيرة فى تطور النزاع فى العالم الحديث .

ومن المعروف عبر التاريخ أن الحضارة كانت دائمًا وأبداً محور الالتقاء بين الشعوب المتنازعة والتى كان صراعها السياسى والعسكرى عادة ما ينتهى إلى التقاء حضارى تذوب فيه الخصومات ويبدأ معه التفاعل الذى ينتهى إلى الاتصال والتعاون،

والأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر . والأهم من هذا وذاك التقاء الشعوب المتخاصمة وبداية التعايش وتبادل الفكر . وقد ينتهى الأمر إلى الاندماج الحضارى فى الحضارة الغالبة التى تملك إمكانات الاستيعاب والاندماج . ويسعى المنتصر عسكريًا إلى تحقيق الاستفادة الحضارية من الشعوب المهزومة إذا كانت صاحبة حضارة قوية تفوق حضارة الشعب الغازى . ولقد أدى الاندماج الحضارى إلى التخفيف من حدة النزاع السياسى العسكرى بل وربما القضاء عليه تمامًا .

واليوم يلجأ بعض الساسة والمفكرين فى الغرب إلى تغيير هذا الوضع الذى سارت عليه الأمم منذ فجر التاريخ . وبدلاً من أن تستمر الحضارات فى فتح باب الاتصال والاندماج بين الشعوب تتحول الحضارات إلى أن تصبح سببًا أساسيًا للنزاع . فالصراعات المستقبلية لن تكون سياسية أو أيديولوجية ولكنها ستكون بين حضارات . والمطلوب هنا هو أن تغير الحضارات ثوبها وترتدى رداء الحرب، وتتحول من عامل للتوفيق بين الشعوب إلى عامل للتفريق والصراع بين الشعوب .

ويأتى هذا التغيير على يد صناع القرار ورجال السياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى المقام الأول . ويعتقد بعض الدارسين لنظرية صدام الحضارات أن السياسة الأمريكية لم تكن تهتم بالبعد الثقافى فى العلاقات الدولية وذلك لافتقار الولايات

المتحدة الأمريكية للرؤية التاريخية للتاريخ الإنسانى وغياب فلسفة التاريخ لدى القرار الأمريكى . ويأتى كتاب " صراع الحضارات " ليدعو صراحة إلى إعادة النظر فى الأولويات الاستراتيجية للولايات المتحدة . فالصورة التى يقدمها الكتاب للسياسة الدولية فى المستقبل تقوم على أساس أن الحضارة الغربية ليست حضارة كونية لوجود حضارات أخرى تزاحمها فى الكون وتنافسها حتى على مستوى الادعاء الكونى . والمستقبل سيتم بلورته حسب رؤى حضارية متعددة فى ظل عالم متعدد الحضارات . ويضع الكتاب فى نهايته استراتيجية غربية تدافع عن الحضارة الغربية ضد الحضارات الأخرى ، وهى بذلك تدافع عن الهيمنة الغربية فى ظل عالم متصادم الحضارات . والاستراتيجية التى يضعها هنتنجتون مأساوية فى نتائجها لأنها قامت على فرضية تشاؤمية منذ البداية . وتقوم هذه الاستراتيجية على الأسس التالية لتحقق هدفها وهو انتصار الحضارة الغربية وهيمنتها على السياسة الدولية . وهذه الأسس هى :

١ - تحقيق تكامل سياسى واقتصادى وعسكرى غربى بين أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وذلك لمنع الدول ذات الحضارات الأخرى من استغلال الخلافات القائمة داخل الغرب .

٢ - دمج دول أوربا الغربية وأوربا الوسطى فى الاتحاد الأوربى وحلف الناتو .

٣ - تشجيع تغريب أمريكا اللاتينية وانحيازها التام للغرب .

٤ - كبح القوة العسكرية التقليدية للدول الإسلامية وللصين .

٥ - إبطاء عملية ابتعاد اليابان عن الغرب وتعطيل توجهها نحو التكامل مع الصين .

٦ - تحول روسيا إلى مركز للأرثوذكسية ولتصبح قوة إقليمية رئيسية ذات مصالح مشروعة فى أمن حدودها الجنوبية .

٧ - الحفاظ على التفوق التكنولوجى والعسكرى على الحضارات الأخرى .

٨ - بناء سياسة أطلنطية للتعاون مع الشركاء الأوربيين لحماية مصالح وقيم الحضارة الفريدة التى يشتركون فيها (٣٢).

إن الاستراتيجية التى وضعها صموئيل هنتنجتون استراتيجية مضادة للحضارات المنافسة للحضارة الغربية . ويمكن القول بلا مغالاة أنها استراتيجية مضادة لحضارتين أساسيتين يرى هنتنجتون أنهما من أكثر الحضارات تهديداً للحضارة الغربية وهما : الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية الكونفوشيوسية . وهو يقول عن التهديد الإسلامى : " إن حربًا كونية تشارك فيها دول المركز فى حضارات العالم الرئيسية أمر بعيد الاحتمال ، ولكنه ليس مستحيلاً . وحرب كهذه قد تنشأ نتيجة تصعيد حرب من حروب خطوط التقسيم بين جماعات من حضارات مختلفة ، وتضم على الأرجح دولاً إسلامية فى جانب ، ودولاً غير إسلامية فى جانب

آخر ، كما أن التصعيد يصبح أكثر احتمالاً إذا كانت دول المركز الإسلامية الطامحة تتنافس لتقديم المساعدة لشركائها فى الدين ، وتصبح أقل احتمالاً بسبب المصالح التى قد تكون لدول القرابة من الدرجة الثانية أو الثالثة فى عدم التورط فى الحرب "(٣٣) . وعن التهديد الصينى يقول : " ميزان القوى المتغير بين الحضارات وبين دول المركز هو أيضًا أحد المصادر الخطرة لحرب كونية بين الحضارات . إن صعود الصين والتوكيد المتزايد لأمبر لاعب فى تاريخ الإنسانية ، إذا استمر ، سوف يخلق توتراً شذيذاً فى الاستقرار العالمى فى أوائل القرن الحادى والعشرين . ويزوغ الصين كقوة مسيطرة فى شرق وجنوب شرق آسيا سيكون ضد المصالح الأمريكية كما تُفسر تاريخيًا " (٣٤) .

ويتصور هنتنجتون أن سبب الحرب سيكون تدخل دولة مركز فى إحدى الحضارات (مثل الولايات المتحدة الأمريكية) فى نزاع بين دولة مركز فى حضارة أخرى (مثل الحضارة الإسلامية أو الحضارة الصينية) ودولة عضو فى تلك الحضارة (مثل أندونيسيا أو فيتنام) ومثل هذا التدخل يعتبره هنتنجتون ضروريًا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية الدولة القوية فى الحضارة الغربية .

وقد وضع هنتنجتون تصوراً لتجنب حروب رئيسية بين الحضارات ويتطلب هذا أن تحجم دول المركز عن التدخل فى

صراعات الحضارات الأخرى وإن كان هذا يبدو صعبًا من وجهة نظره.

ووضع تصوراً لقانونين يمنعان وقوع الحرب بين الحضارات . القانون الأول سماه قانون "الامتناع" بمعنى أن تمتنع دول المركز عن التدخل فى صراعات داخل الحضارات الأخرى وهذا أول متطلبات السلام فى عالم متعدد الحضارات ومتعدد الأقطاب . أما القانون الثانى فهو ما يسميه بقانون "الوساطة المشتركة" بمعى أن تتفاوض دول المركز مع بعضها البعض لاحتواء أو إيقاف حروب خطوط التقسيم الحضارى بين دول أو جماعات داخل حضارتها .

ويعترف هنتنجتون أن قبول هذه القوانين لن يكون سهلاً فى عالم تسود فيه مساواة أكبر بين الحضارات . فقد ترى دول المركز أن لها امتيازات تنكرها على أعضاء آخرين داخل نفس الحضارة ، أو أن تسعى إحدى الحضارات الرئيسية لتحتل مكانة الحضارة الغربية أو تنافسها أو أن تحل محلها .

ويتحدث هنتنجتون عن قانون ثالث سماه " قانون العوامل المشتركة " ويراه ضروريًا لتحقيق السلام فى عالم متعدد الحضارات ويطالب فى هذا القانون بضرورة أن تبحث شعوب جميع الحضارات عن تلك القيم والمؤسسات والممارسات المشتركة بينهم وبين شعوب الحضارات الأخرى ، وأن يقوموا بتوسيع هذه القيم . ومن خلال هذه القوانين يتم وضع حد لصدام الحضارات بل تساهم

هذه القوانين فى تقوية الحضارة كمفهوم معقد ومزيج مركب من الأخلاق والدين ، والتعليم والفن ، والفلسفة والتكنولوجيا والرخاء المادى . وفى النهاية يقر هنتنجتون بأن مستقبل السلام والحضارة يعتمد على الفهم والتعاون بين القادة السياسيين والروحيين والمفكرين فى حضارات العالم الرئيسية ، وفى الوقت الذى يعترف فيه بأن صدام الحضارات هو الخطر الأكثر تهديداً للسلام العالمى ينادى هنتنجتون بنظام عالمى يقوم على الحضارات كضمان أكيد ضد وقوع حرب عالمية (٣٥) . ولايعطى هنتنجتون أية تفاصيل عن هذا النظام العالمى القائم على الحضارات لكى يمنع صدام الحضارات .

تميل نظرية صموئيل هنتنجتون إلى تسييس الحضارات وهذا يعد أخطر مافى نظرية صدام الحضارات . وبداية نقول إن العنوان الذى اختاره هنتنجتون لكتابه يحتوى على مفارقة ولايخلو من تناقض . فالحضارات عادة لاتتصادم ، وكلمة صدام Clash كلمة لها دلالة سياسية واضحة فى عنوان كتاب هنتنجتون وهو اختيار مقصود للدلالة على مضمون النظرية عنده فالحضارات ستكون سبب الحروب فى المستقبل ولذلك فالصدام لن يكون بين أمم أو شعوب أو دول أو إمبراطوريات ولكنه سيكون بين حضارات . وكلمة صدام أيضًا لها رنين عسكرى حربى بما يعنى أن حروبًا حقيقية ستنشأ بين الحضارات . وقد يستدعى هذا تغيير

المصطلحات السياسية مستقبلاً فبدلاً من القول بأن صدامًا وقع بين المصريين واليونان مثلاً سنقول أن صدامًا وقع بين حضارة المصريين وحضارة اليونان أو نعرف أن صدامًا بين دولتين من إفريقيا بأنه صدام حضارى أو ثقافى داخلى ، وإذا كان الصدام بين دولتين من حضارتين مختلفتين فسنعتبر هذا الصدام صدامًا خارجيًا ، وذلك وفقًا لتوزيع الصراعات والنزاعات إلى صراعات داخلية وخارجية .

وقد وضع هنتنجتون العديد من المصطلحات الجديدة فى السياسة الدولية والتى تثبت رغبته فى إحلال صدام الحضارات مكان صدام الدول والشعوب . فهو يستخدم مثلاً مصطلح " ميزان القوى المتغير بين الحضارات " (٣٦) بعد أن كان الاستخدام السياسى الشائع هو " ميزان القوى المتغير بين الدول أو بين الأقاليم أو بين التحالفات السياسية " . ويستخدم مصطلح " الحرب الحضارية الكونية " بدلاً من " الحرب العالمية " (٣٧) . ويستخدم " الخطوط الفاصلة بين الحضارات " بدلاً من الحدود الفاصلة بين الدول كخطوط للمعارك فى المستقبل . ويقول : " السياسة الكونية للحضارات بدلاً من السياسة العالمية للدول(٣٨) ويقول : " السيطرة السياسية للحضارات " بدلاً من السيطرة السياسية للدول ، ويقول " الحدود الشرقية للحضارة الغربية " بدلاً

من الحدود الشرقية للدول الغربية . وكذلك قوله إن الحضارة الواحدة قد تحتوى على وحدة سياسية واحدة أو أكثر . وهذه الوحدات قد تكون ولايات أو إمبراطوريات ، أو اتحادات فيدرالية أو كونفيدرالية ، أو دول قومية أو دول متعددة الجنسيات ، وهو هنا يعتبر الحضارة هى المؤسسة للأشكال السياسية ، ولذلك يتحدث عن "التركيب السياسى للحضارات " (٣٩) .

وهكذا يضع هنتنجتون خريطة جديدة للمصطلحات السياسية ليبرهن على صدام الحضارات ويبعد الأذهان عن صراع الدول .

ويرى هنتنجتون أن المؤسسات والمنظمات الدولية التى نشأت بعد الحرب العالمية الثانية قد تم تشكيلها وفقًا للمصالح والقيم والممارسات الغربية ، ونظراً لتغير الوضع الحضارى من وجهة نظره فإن الضغوط ستتوالى لإعادة تشكيل هذه المؤسسات وفقًا للخارطة الحضارية الجديدة التى تشهد من وجهة نظره إنهيار الحضارة الغربية وازدهار الحضارات الأخرى أو على الأقل عدم تعرضها للانحلال والتدهور مثل الحضارة الغربية . وسيتغير ميزان القوى فى هذه المنظمات الدولية لمصلحة الحضارات الأخرى .

ويضرب مثالاً على هذا بمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة والذى تتمتع بعضويته الدول التى خرجت منتصرة فى الحرب العالمية الثانية . وفى عالم متعدد الحضارات يرى هنتنجتون أن

الوضع المثالي هو أن يكون لكل حضارة بين الحضارات الرئيسية مقعد واحد دائم على الأقل في مجلس الأمن (٤٠)، ويوزع هنتنجتون مقاعد مجلس الأمن وفق نظرية تصادم الحضارات فيرى أن الهند واليابان يجب أن تكونا عضوين دائمين ، وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلام لابد وأن يكون لهم مقاعد دائمة يمكن شغلها بشكل دوري بواسطة الدول الرئيسية في تلك الحضارات ، ويتم الاختيار عن طريق المنظمات الإقليمية مثل منظمة الوحدة الإفريقية ، أو منظمة المؤتمر الإسلامي، ومنظمة الدول الأمريكية بدون الولايات المتحدة الأمريكية . ويرى دمج المقعدين البريطاني والفرنسي في مقعد واحد للاتحاد الأوربي . وفي النهاية يخضع مقاعد مجلس الأمن للتوزيع الحضاري ، فلكل حضارة مقعد وللحضارة الغربية مقعدان فقط .

هذا التسييس التام للحضارات لايتفق مع طبيعتها ولامع دور الحضارات في التاريخ . وكان الأولى بصموئيل هنتنجتون أن يركز على البعد الحضاري ودوره في السياسة الدولية بدلاً من إخضاع الحضارات للسياسة واعتبارها أسبابًا للصراع والصدام بعد أن كانت الحضارات دائمًا وأبداً نقطة التقاء الشعوب وعاملاً حاسمًا في التخفيف من حدة الصراعات السياسية على المستوى الدولي . لقد التقت الحضارات على المستويين المادي والمعنوي واستفادت من بعضها البعض ، بل وساهم كل منها في بناء الحضارة

الإنسانية . فعلى المستوى المادى انتقلت منجزات الحضارة المادية من مكان إلى مكان ، وساهمت كل الشعوب فى بناء هذه الحضارة المادية . فقد استقبلت كل حضارة المنجزات المادية للحضارة السابقة عليها أو المعاصرة لها واستوعبتها ، وأضافت إليها لكى تسلمها إلى غيرها الأمر الذى أدى إلى بناء الحضارة الإنسانية المادية . فاليونان أخذوا عن حضارات الشرق الأدنى القديم (مصر والعراق وسوريا وإيران) وبُنى العلم اليونانى والرومانى على أسس شرقية ثم انتشرت الثقافة اليونانية والعلم اليونانى بعد ذلك فى أرجاء الشرق الأدنى القديم . ومع ظهور الإسلام اعتمد المسلمون على علوم اليونان والهند وبنوا نهضتهم العلمية على أساسها والتى سلموها بدورهم إلى أوربا مرة أخرى ليعودوا فيطلبوها من أوربا مرة ثانية . وهكذا تبادلت الشعوب بناء الحضارة الإنسانية الواحدة على المستوى المادى والتكنولوجى .

وعلى المستوى المعنوى استفادت الحضارات من بعضها البعض عى مستوى القيم الروحية والمعنوية، وتم التبادل الثقافى الناقل لهذه القيم . وعادة ما تتعرض هذه القيم المتبادلة لعملية هضم واستيعاب وتقييم للإيجابيات والسلبيات فى محاولة للوصول إلى نسق من القيم يحقق أفضل ما فى الحضارات والأصلح فى

التاريخ الإنساني . وفي ظل هذا التبادل الثقافي والقيمي حافظت الحضارات على هيوتها ولم تندمج في بعضها البعض إلا بفعل القوة أي حين استخدمت السياسة لفرض ثقافة معينة على بقية الحضارات . ولكن سرعان ماتعود الحضارات إلى سابق استقلالها بعد زوال الأسباب السياسية الدافعة إلى الاندماج والذوبان .

وقد تمكنت الحضارة دائمًا من التغلب على السياسة . ففي مجال الصراعات السياسية بين الشعوب قربت الحضارات بين الشعوب وخففت من حدة الصراعات السياسية بينها ، وعملت على تحقيق التقارب والذي كان استجابة طبيعية . فكل شعب يسعى بالتأكيد إلى الارتقاء بوضعه الحضاري المادي والمعنوي ولم يشعر شعب ما بحرج في تحقيق الاستفادة الحضارية ولو كان ذلك من خلال الاتصال بأعدائه السياسيين .

إن الحضارة هي الخالقة للسياسة والمشكلة لها . والنظم السياسية ماهي في النهاية سوى هيكلة للأساليب الحياتية وللعادات والتقاليد المنظمة لعلاقة الإنسان بالإنسان ، وعلاقة الجماعة بالجماعة ، وعلاقة الشعب بالشعب ، وعلاقة الأمم بالأمم الأخرى . والتفكير السياسي بلاشك هو جزء من الفكر الحضاري يخضع للقيم والعادات والتقاليد والأعتراف التي تتعارف عليها الشعوب . ومن المهم أن يبقى للحضارة تأثيرها وتوجيهها

للسياسة ، فالقيم الحضارية هى التى تدفع الأمم إلى العمل بسياسات معينة ورفض سياسات أخرى . وهى التى تدفع إلى الاتصال والتعاون ، وهى أيضًا التى تحض على العزلة وعدم التعاون . والتقاء الحضارات يؤدى إلى تغيير الشعوب من حيث سياساتها وعلاقتها ببعضها البعض . ومن المهم تدعيم هذا البعد الحضارى لكى يكون دائمًا وأبداً عامل تقريب بين الشعوب ، وليس عامل تفريق أو هدم . وفى حالة قوة البعد الحضارى تستطيع الشعوب أن تتغلب على مشاكلها على المستوى الدولى ، بل ويمكنها أن تسد الثغرات التى تنتج عن عدم وجود سياسات أو قوانين تنظم علاقة الأفراد وعلاقة الدول ببعضها البعض . وقد حدث أن تغلب البعد الحضارى على عدم وجود شرائع ، أو نصوص ، أو قوانين تحل بعض المشاكل الناجمة عن الصراعات السياسية الدولية كما حدث فى محاكمة مجرمى الحرب العالمية الثانية عن الجرائم الى ارتكبوها ضد الإنسانية حيث حوكم مجرمو الحرب بدون نص قانونى وذلك وجود نصوص قانونية . فالحضارات كلها تتفق حول حقوق الإنسان ، وتشتمل على مبادىء خاصة بهذه الحقوق ، وذلك قبل أن يتم التوصل إلى إعلان حقوق الإنسان وغير ذلك من الصور القانونية التى وضعتها المنظمات الدولية لحماية حقوق الإنسان ومنع ارتكاب الجرائم ضد الإنسانية . فالقيمة الحضارية أقدم بلاشك من القانون الذى يوضع لها فيما بعد ويصبح

مستخدمًا كنص أو تشريع ضد جريمة إنسانية معينة . والخطأ فى نظرية صدام الحضارات أنها لم تراع هذا البعد الذى تمثله الحضارات فى السياسة وفى العلاقات الدولية وتريد أن تعكس تأثير هذا البعد فيصبح سببًا للاختلاف بدلاً من كونه عاملاً للتقارب والائتلاف بين الشعوب .

إن تسييس القيم الحضارية نتيجة خطيرة من نتائج نظرية صدام الحضارات . وقد بدأت السياسة الدولية تستخدم العوامل الحضارية لتبرير اللجوء إلى العنف والتهديد ، وكذلك تبرير الأعمال السياسية والعسكرية ، وتبرير التدخل فى شئون الدول. ففى الصومال تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية لأسباب دعتها أسباب إنسانية . وفى كوسوفا تدخل حلف الناتو تقوده الولايات المتحدة الأمريكية للقضاء على سياسة التطهير العرقى ضد الألبان فى كوسوفا . وفى هذا خلط الأمر الإنسانى بالمصلحة القومية للدولة المتدخلة .

ومن ناحية أخرى بدأت الأمم المتحدة تستخدم القيم الاجتماعية لبعض الدول وتحاول نشرها باعتبارها قيمًا عالمية حاكمة تصدرها إلى كل دول العالم لتشكيل معايير عالمية موحدة تصلح لقياس التطور العالمى وهى فى الحقيقة ليست سوى أداة غربية للسيطرة الثقافة على المجتمعات المنافسة . ونظرية صدام الحضارات تمثل موقفًا دفاعيًا غربيًا لفرض قيم تسمى قيمًا أممية أو عالمية على العالم كله (ص ١٦٨) .

وتمثل هذه السياسات استغلالاً للحضارات وللقيم النابعة عنها كوسيلة لتحقيق أهداف سياسية للدول الكبرى أو من خلال نظام القيم الوظيفية التى أطلقتها الأمم المتحدة . إن القيم الحضارية بمثابة ضوابط للسلوك الإنسانى ولايجب أن تستخدم أو تستغل لغير هذا المقصد الأساسى بأن توظف سياسيًا لتحقيق أهداف ومصالح سياسية لدول بعينها أو لمنظمات دولية .

ولعل أصدق مثال على ذلك السياسة التى تتبعها الخارجية الأمريكية منذ فترة حيث اعتبرت العمل من أجل تحقيق السلام فى العالم مرتبطًا بصورة حقوق الإنسان ، ودعم المؤسسات الديموقراطية . وسارت بعض الدول الأوربية الغربية على نفس هذه السياسة . وربطت الولايات المتحدة المعونات التى تمنحها لبعض الدول بتحديد موقفها من قضايا الديموقراطية وحقوق الإنسان . والحقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية تستغل هذه القيم الحضارية لتحقيق مصلحتها القومية ، وتخلط خلطًا واضحًا بين الإنسانى والقومى وتستغل الإنسانى ليحقق القومى . وأفضل دليل على صدق ذلك هو القياس بمقياسين فيما يتعلق بقضية حقوق الإنسان . ففى الوقت الذى تطالب فيه بعض الدول بالحفاظ على حقوق الإنسان نجدها تتجاهل تجاوزات بعض الدول الأخرى ، وبخاصة إسرائيل ، فى مجال حقوق الإنسان . وفى الوقت الذى تطالب فيه بالدفاع عن حقوق الإنسان مع دول معينة نجدها

تستخدم حق الفيتو لعدم إصدار قرارات تدين إسرائيل بانتهاك حقوق الإنسان ، وفى انتهاكات واضحة لاتحتاج إلى أدلة حيث تنقلها وسائل الإعلام بصفة شبه يومية . وهذا يدل على أن قضية حقوق الإنسان تستخدم كذريعة للتدخل فى شئون الدول الأخرى من أجل تحقيق مصالح قومية أمريكية خالصة .

إن الحضارات الإنسانية مصدر للقيم الموجهة للسلوك الإنسانى داخل الحضارة الواحدة ، والمنظمة لعلاقة الحضارات ببعضها البعض ، والمحققة للاتصال والتعاون بين الشعوب الحضارية . ومن الخطر توظيف هذه القيم سياسيًا واستغلالها فى تبرير الأعمال السياسية والتدخل فى الشئون الداخلية للدول.

والحوار الذى يجب أن يتم بين الحضارات هدفه تحقيق التفاهم بين الشعوب ، وتقريب الشعوب من بعضها البعض ، والحد من النزاعات ذات الطابع السياسى والاقتصادى ، والعمل على تبادل الأفكار والمفاهيم والمنجزات الحضارية بين الدول ذات الحضارات المختلفة ، إن نظرية صدام الحضارات تقف فى وجه التعاون الدولى على المستوى الثقافى ، وتقتل آمال الشعوب فى الالتقاء وتبادل المنافع والمعارف، وتفتح جبهة جديدة للصراع لم تكن موجودة من قبل وهى الجبهة الحضارية ، وتظل الجبهة القديمة للصراع كما هى موجودة رغم تصور هنتنجتون بزوالها ونقصد بها جبهة الصراع الأيديولوجى والسياسى . فهو يتصور أن الصدام بين الحضارات

سيحل محل الصدام بين الأيديولوجيات والحقيقة أن الأخير سيستمر لأنه الأصل الأول للصراع الدولى .

وفى الوقت الذى يهدف فيه الحوار بين الحضارات إلى توحيد القيم بين الشعوب تأتى نظرية صدام الحضارات لتضع نهاية حتمية للتقارب الحضارى بين الشعوب ، وتغذى اختلاف القيم وصراعها على الحضارات . إن صدام الحضارات سيؤدى بلاشك إلى انتشار القيم المتضادة المؤدية إلى التصادم الفعلى، كما أنها ستؤدى بالتأكيد إلى انتكاسة حضارية كبرى وتخلف حضارى نتيجة للعزلة التى تفرضها هذه النظرية على الحضارات الإنسانية .

الحواشى :

١ - صموئيل هنتنجتون : صدام الحضارات " إعادة صنع النظام العالمى .
ترجمة طلعت الشايب تقديم صلاح قنصوة . القاهرة ١٩٩٨م ، ص ٧٩ .

٢ - المرجع السابق ص ٧٩ .

٣ - نفس المرجع ص ٨٠ .

٤ - نفس المرجع ص ٣٤٠ .

٥ - نفس المرجع ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

٦ - نفس المرجع ص ٣٤٢ .

٧ - نفس المرجع ص ٣٤٢ .

٨ - نفس المرجع ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

٩ - نفس المرجع ص ٣٤٤ . .

١٠ - نفس المرجع ص ٣٥٣ .

١١ - نفس المرجع ص ٣٦٤ .

١٢ - نفس المرجع ص ٣٥٢ .

١٤ - محمد سعدى . صدام الحضارات . عرض نقدى ، مجلة المستقبل العربى
العدد ٢٤٤ المجلد ٦ عام ١٩٩٩م ، ص ١٧٣ .

١٥ - المرجع السابق ص ١٧٣ .

١٦ - انظر عرض محاور مؤتمر « المسلمون وحوار الحضارات فى العالم المعاصر » الأردن . عمان ٥-٧ يوليو ١٩٩٥م ، مجلة الكلمة العدد ١٠ ، السنة الثالثة ١٩٩٦ . بيروت ص ١٢٣ .

١٧ - المرجع السابق ص ١٢١ .

١٨ - نفس المرجع ص ١٢٥ .

١٩ - نفس المرجع ص ١٢٦ .

٢٠ - نفس المرجع ص ١٢٦.

٢١ - نفس المرجع ص ١٢٦ .

٢٢ - نفس المرجع ص ١٢٦ .

٢٣ - نفس المرجع ص ١٢٦ .

٢٤ - نفس المرجع ص ١٢٧ .

٢٥ - نفس المرجع ص ١٢٧ .

٢٦ - نفس المرجع ص ١٢٧ - ١٢٨ .

٢٧ - نفس المرجع ص ١٢١ .

٢٨ - نفس المرجع ص ١٢٤ - ١٢٥ .

٢٩ - نفس المرجع ص ١٢٩ - ١٣٠ .

٣٠ - نفس المرجع ص ١٣١ .

٣١ - محمد سعدى : ص ١٧٢ .

٣٢ - صموئيل هنتنجتون : صدام الحضارات ، مرجع سابق ص ٥٠٤ - ٥٠٥.

٣٣ - المرجع السابق ص ٥٠٥ .

٣٤ - نفس المرجع ص ٥٠٦ .

٣٥ - نفس المرجع ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

٣٦ - نفس المرجع ص ٥٠٥

٣٧ - نفس المرجع ص ٥١١ .

٣٨ - نفس المرجع ص ٣٩٧ .

٣٩ - نفس المرجع ص ٧٣ .

٤٠ - نفس المرجع ص ٥١٤ .

المحتويات

رقم الإيداع	٢٠٠٤/٥٢٠٥

مطبعة العمرانية للأوفست
المنيب ت: ٧٧٧٩٣٩٨